الحجّ عبر الحضارات والأمم (٣)
القدس ـ الكعبة

ماجدة المؤمن

● القدس، هل كانت مركزاً لحج الأنبياء؟

بيت المقدس أو القدس، مدينة تاريخية قديمة عرفت في التاريخ مدينة مقدسة، اهتمت بها الأديان الرئيسية الثلاثة: الديانة اليهودية والديانة المسيحية والدين الإسلامي الحنيف...

ولفرط قداستها اعتبرها اليهود رمزاً لبيت الله تعالىٰ، واعتبرها النصارىٰ رمزاً لروح القدس، واعتبرها المسلمون أولى القبلتين ومحل إسراء الرسول ﷺ...

وقد حفلت هذه المدينة بالأماكن المقدسة كقبة الصخرة والمسجد الأقصىٰ وهيكل سليمان وحائط المبكى و... مما تقدسه الأديان الثلاثة.

ومن هنا جاء اهتمام التاريخ والأديان بها والصراع عليها، وكلٌ يستطيع أن يؤدي شعائره وطقوسه فيها...

وقد عاش فيها عدد من الأنبياء والمرسلين، فهي في حقيقتها مدينة الأنبياء والأولياء، وليس هناك مدينة في تاريخ العالم تمتعت بقدسية مستديمة منذ أن أسسها

(اليبوسيون الكنعانيون)[١] قبل نحو خمسة آلاف عام حتىٰ يومنا هذا، مثل مدينة أورشليم، (بيت المقدس الحالية): فهي الأرض المباركة «دار السلام» كما سمّاها الأقدمون، وقد حمل ملوكها القدماء لواء عقيدة التوحيد للإله العلي لأول مرة في التاريخ البشري، علىٰ ما يرىٰ كثير من المؤرخين[٢].

وقد خصّها الله تعالىٰ بالعديد من الأنبياء حتىٰ قيل: إنّ بناءها تم علىٰ أيديهم وسكنوها وعمروها «ومافيها موضع شبرإلّا وقد صلّىٰ فيه نبي أو قام فيه ملك»[٣]، كما خصّها الله تعالىٰ بإسراء خاتم الأنبياء، ثم إنها قبلة اليهود والنصارىٰ وصلّىٰ إليها المسلمون مع رسول الله محمدﷺ في بداية الدعوة الإسلامية فترة قصيرة حتىٰ منَّ الله تعالىٰ علىٰ رسوله المصطفىٰ بقبلةٍ يرضاها: ﴿... **فلنولينك قِبلةً ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثُ ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره وإنّ الذين أُوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحقّ من ربّهم وما الله بغافلٍ عما يعملون**﴾[٤].

وبالرغم من هذه القدسية لبيت المقدس لكننا لم نجد في القرآن الكريم ما يشير الىٰ أن الله تعالىٰ، ينسبه إلى نفسه في الكيفية، التي نتلمسها في الكعبة والتي تختص بها دون غيرها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**بيتي**﴾[٥] و﴿**بيتك**﴾. كما ورد في قوله ابراهيم عليه السلام مناجياً ربّه ﴿**عند بيتك المحرم**﴾[٦]. ولو رجعنا إلى التوراة التي دونها اليهود أنفسهم في الأسر، بعد السبي البابلي وبعد مضي ثمانمئة عام من نزول الوصايا العشر علىٰ موسىٰ عليه السلام وتعاليم الشريعة الموسوية، ثم حشر تاريخ بني اسرائيل فيها والتشويه والتحوير الذي جاء لخدمة مقاصد خاصة وأهداف معينة، حيث اتخذت من شخصية النبي موسىٰ عليه السلام قوة دينية تتشبث بها ضد أعدائها، كما اتخذت من إرجاع أصلها إلى إبراهيم الخليل عليه السلام وحفيده «يعقوب عليه السلام» النسب الأصيل الذي يجعلها أهلاً لتكون «شعب الله المختار»، ومن بيت المقدس عقيدة (الوطن الموعود) الذي يفيض عليها قدسية وروحانية، وعزت كلّ ذلك إلى الإله «يهوه» والىٰ ابراهيم الخليل ويعقوب وكلهم بريئون منها، ولو رجعنا إلى الانجيل فحاله حال

التوراة، ومع كلّ ما شوهت وكتبت ودست لكننا لا نلمس أثراً ولا نصاً يقول: إنّ الله تعالىٰ نسبه إلى نفسه أو أمر الناس أن يحجوا إليه بينما وجدنا ابراهيم الخليل عليه السلام عندما أقام البيت الحرام (الكعبة) جاءه الخطاب الإلهي ﴿**وأذّن في الناس بالحج...**﴾ وجاء تأكيد القرآن الكريم أولوية الكعبة فقال: ﴿**إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة**﴾.

هجرة النبي ابراهيم عليه السلام إلى القدس

لقد توصل علماء الآثار في أحدث بحوثهم إلى أن ابراهيم الخليل عليه السلام ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد أي قبل حوالى أربعة آلاف عام في بلاد الرافدين، وعاش في زمن نمرود، الملك الذي دفعته أحلامه المزعجة إلى مراقبة الحوامل وقتل الذكور من المواليد.

وزار عُملاؤه والدة ابراهيم عليه السلام ليكشفوا ما في بطنها قبل أن يأتيها المخاض، وجسّوا جانبها الأيمن، فاختفى الجنين في الجانب الأيسر، وجسّوا الأيسر، فاختفىٰ في الجانب الأيمن، فانصرفوا دون أن يظفروا بما ستلد، الأمر الذي اضطر أمَّ ابراهيم أن تلجأ إلى كهفٍ بالقرب من «كوثا»[٧]، وهناك رأى ابراهيم الخليل نور الحياة للمرة الأولىٰ[٨].

ولما بلغ ابراهيم رشده، كما ورد في القرآن الكريم، من محاورته لأبيه وقومه من عبدة الأوثان، قال تعالىٰ: ﴿**ولقد آتينا ابراهيم رُشدَه من قبلُ وكُنّا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلالٍ مبين * قالوا أجئتنا بالحقِّ أم أنت من اللاعبين * قال بل ربّكم ربّ السماوات والأرض الذي فطرهُنَّ وأنا علىٰ ذلكم من الشاهدين**﴾[٩].

ثم صمم ابراهيم عليه السلام علىٰ تحطيم أصنامهم وأقسم بالله علىٰ ذلك ﴿**وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تُوَلّوا مدبرين * فجعلهم جُذاذاً إلّا كبيراً لهم لعلهم يرجعون ***

قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتًى يذكُرهم يُقال له ابراهيم﴾[١٠].

وكانت هذه القضية سبباً لمحاكمته العلنية أمام الأشهاد، وانتصر ابراهيم عليهم من خلال محاججته المنطقية والموضوعية: ﴿**قالوا فأتوا به علىٰ أعين الناس لعلهم يشهدون * قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون * ثم نُكسوا علىٰ رؤوسهم لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون**﴾[١١].

وبهذا فشل القوم مع ابراهيم عليه السلام، وزادتهم العِزةُ بالإثم عناداً وعداءً لإبراهيم عليه السلام، وأصروا على التخلص منه: ﴿**قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قُلنا يا نار كوني برداً وسلاماً علىٰ ابراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين * ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين**﴾[١٢].

من هنا اتخذ ابراهيم عليه السلام خليل الرحمن، رأياً محدداً في تقرير مصيره، فحين نجّاه الله تعالىٰ من النار التي أضرمها القوم للقضاء عليه، صمم الرحيل والهجرة عن الوطن إلى الأرض المباركة (المقدسة) التي باركها الله تعالىٰ للعالمين كما ذكرتها الآية الكريمة.

أجل إنها كانت مُقدسة، وكان فيها العابد الكاهن الموحّد لله تعالى المؤسس لبيت المقدس (ملكي صادق) الذي بارك لإبراهيم عليه السلام كما ذكر المؤرخون والباحثون، وذكروا أيضاً أنّ (ملكي صادق) من سلالة كنعان، وكان محافظاً علىٰ سُنة الله القديمة بين شعب وثني، وقد عُرف بالتقوىٰ والزهد، وقيل: إنه كان يسكن هو وقومه في الكهوف، وكان أول من اختط (أورشليم) القدس وبناها وكان محباً للسلام حتىٰ أطلق عليه «ملك السلام» ومن هنا جاء اسم المدينة «سالم» اي مدينة السلام، ثم «شالم» و «شليم» فهي اليوم «أورشليم»[١٣].

هاجر ابراهيم خليل الله مع زوجه سارة ولوط وعدّة من أتباعه تحفهم رعاية الله ورحمته إلى مدينة (حاران) (حرّان الحالية) ومنها إلى أرض كنعان «شليم» فلسطين الحالية، ليستقر هو وأتباعه بالقرب من الرجل الصالح «ملكي صادق».

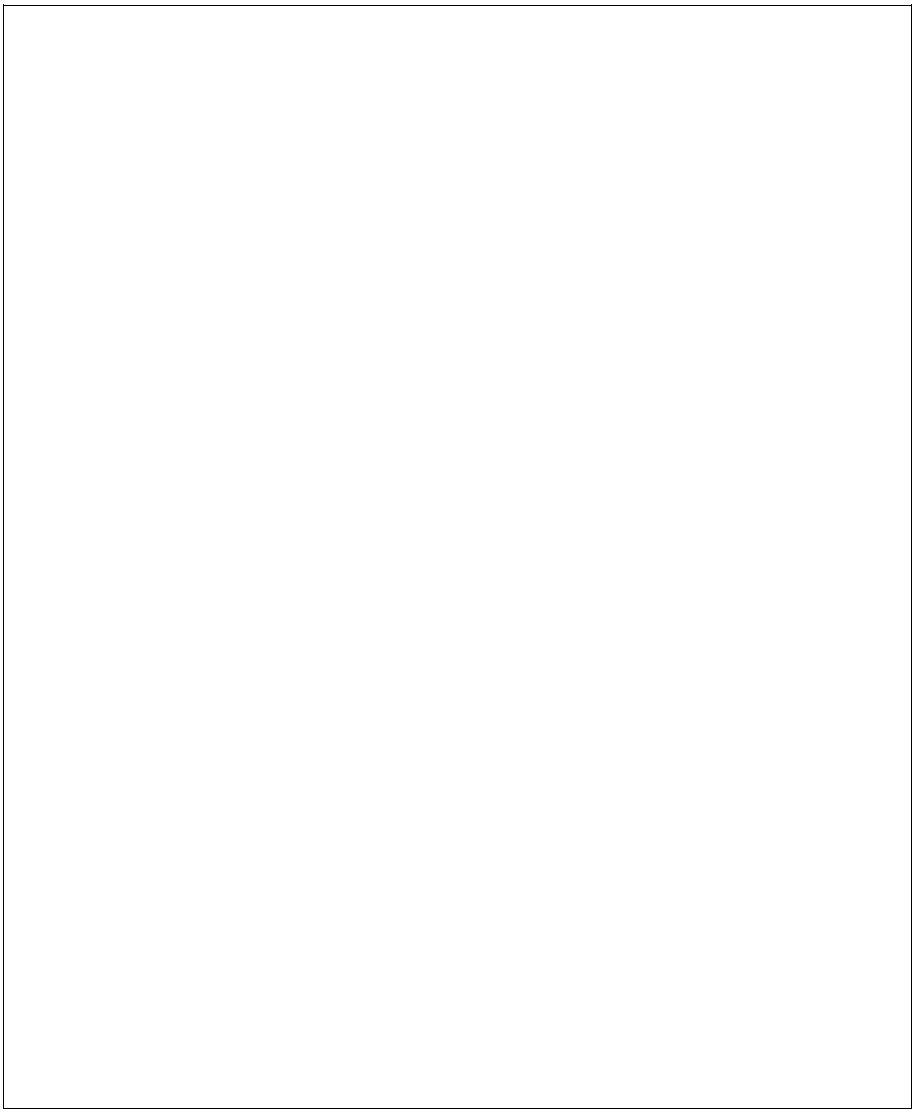

أمّ إبراهيم تخفي ولدها في كهف بالقرب من «كوثا»

وبعد فترة، أصاب المدينة قحط وغلاء، فانحدر ابراهيم عليه السلام وزوجه إلى مصر، ثم غادرها عائداً إلى «شليم» وأقام في حبرون مدينة الخليل الحالية، ثم رزقه الله ذكراً من الجارية المصرية هاجر أسماه اسماعيل الذي فداه الله تعالىٰ بالذبح العظيم كما ذكرنا سابقاً بعد بناء الكعبة الشريفة.

من خلال ما وصل إلينا من أخبار المؤرخين ومن بحوث المنقبين في الآثار ومن القرآن الكريم وغيرها، لم يذكر أحدهم أنّ ابراهيم عليه السلام هاجر إلى القدس ليحج فيها، أو رجع من مصر ليؤدي مراسم الحج في القدس، أو أنه اتخذها مكاناً للحج أو دعا للحج فيها، بل هي دار هجرته وغربته كما تذكر التوراة: «تغرب ابراهيم في أرض الفلسطينين»(١٤). وكذلك «وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان»(١٥).

وهذا ما قد عرفنا أنّ وطن ابراهيم الأول هو بلد وادي الرافدين أي في العراق الحالي، بل انه عراقي المولد كنعاني الأصل يرجع إلى الجزيرة العربية التي انحدر منها آباؤه وأجداده إلى بابل. والجزيرة العربية أصبحت بعد ذلك موطن ذريته من اسماعيل بعد أن أسكنه هو وأمه فيها...

القدس في عهد يوسف عليه السلام

ورزق الله ابراهيم عليه السلام في شيخوخته ولداً آخر سمّاه (اسحاق) أسكنه وأمه العجوز سارة في مدينة حبرون (الخليل الحالية)، وآلَ أمر اسحاق عليه السلام أن يكون نبياً ويرزق بيعقوب نبياً، وشاء الله تعالىٰ ان يرزق يعقوب أحدَ عشرَ ولداً ذكراً من زوجاته الأربع من بينهم كان يوسف الأثير عند أبيه يعقوب يخصّه بقسط عظيم من محبته ويميزه علىٰ اخوانه، وكان يوسف عليه السلام حسن السيرة، جميل الصورة، كثير الأحلام الصادقة، مما جعل يعقوب عليه السلام يهتم به ويؤثره عليهم فسبب ذلك حقد اخوته عليه، ثم كان سبباً في محنته وغُربته عن الوالد حوالى ثلاثين عاماً لكنها ـ المحنة والغربة ـ كانت خيراً وبركة عليه وعلى الأمم القريبة من مصر وعلىٰ

مصر نفسها وعلىٰ اورشليم موطن غربتهم...

وذُكرت قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم بشكل مفصل وجميل كما ذكرتها التوراة مع فارقٍ بسيط، وفي هذا الحديث لا يهمنا من قصة يوسف وأحداثها سوىٰ أنه عندما خرج من بيت المقدس مباعاً إلى «فاطيفور»[١٦] الجندي الفرعون، ثم دخل مصر. هل رجع إلى القدس حاجاً لها؟... هذا ما ستبينه المفاجأت في حياة يوسف عليه السلام!

تغرب يوسف عليه السلام عن الأهل والأحبة والاخوان عدداً من السنين، وبعد معاناة طويلة صار وزيراً علىٰ مصر كلّها، فبعث وراء أبويه وعشيرته عن طريق اخوته الذين أرسلهم أبوهم (يعقوب عليه السلام) نتيجة القحط والفقر والجدب الذي أصاب مدينة «أورشليم» وما حولها من البلدان الا مصر بشهامة يوسف عليه السلام وعقله الناضج، حيث ادّخر المواد الغذائية في المخازن المصرية الفرعونية في أيام الوفرة لأيام القحط[١٧]...

واستقر آل يعقوب «بنو اسرائيل»[١٨] في مصر الفرعونية، حتىٰ وفاة يعقوب عليه السلام حيث جهزه يوسف عليه السلام مع وفد من أهل بيته ورجاله في موكب عزٍّ وجلال ودُفن في منطقة «بئر الحي الرائي»[١٩] بالقرب من قبر أبيه اسحاق وجده ابراهيم عليه السلام، في مدينة الخليل الحالية.

وبقي بنو اسرائيل في مصر وتوفي يوسف عليه السلام، ولم يذكر التاريخ لنا أو الآثار أو التوراة أو أي كتاب سماوي أن يوسف عليه السلام خلال مدة إقامته في مصر أنه حجَّ بيت المقدس أو دعا القوم للحج إليه، بل كلّ ما وصلنا أنّ بيت المقدس وما حولها في عهد يوسف عليه السلام أصابها جدب وقحط وقلة في الأمطار حتىٰ تركها الأغلبية من سكنها طلباً للماء والغذاء.

إذن دخول بني اسرائيل ـ بني يعقوب ـ مصر وكان عام (١٦٥٦) ق.م عن طريق يوسف عليه السلام في عهد الملك (أبو فيس) ملك الهكسوس في الأسرة السادسة

عشرة، وكان عددهم كما ورد في التوراة سبعين شخصاً بقيادة يعقوب عليه السلام[٢٠]... واستقرت هذه الأسرة حوالى (٤٠٠) عام حتىٰ ظهر موسىٰ عليه السلام بينهم...

هذا ما كان للقدس منذ زمن اسحاق عليه السلام حتىٰ موسىٰ عليه السلام فلم يحج أحدهم إليها رغم قدسيتها ومقامها عند الجميع، والقدسية شيء والأمر الإلهي شيءٌ آخر.

موسى الكليم عليه السلام والقدس

وقصة موسىٰ عليه السلام، قصة العظات والعبر والدروس، ذكرها القرآن الكريم بكامل تفاصيلها لأهميتها، ولبيان حماقة قومه الذين كانوا مستضعفين ومضطهدين، فأنجاهم موسىٰ عليه السلام ليسير بهم إلى الأرض المقدسة، فيسكنهم فيها، لكنهم لجوا وكفروا فباءوا بغضبٍ من الله إلى يوم يُبعثون.

وذكرت التوراة قصته بما يشابه ما قصّه القرآن الكريم في ذكر عنادهم ولجاجتهم، إلّا أن التوراة حوّرت في نهاية مطاف بني اسرائيل مع موسىٰ عليه السلام وأخبار الأجداد والسلف منهم في شرعية استحلال القدس ودخولها وقتل أهلها وسلبهم وحرق ما حلىٰ لهم من ممتلكات سكان أهلها. فقد ذكروا أنّ ابراهيم الخليل حين دخل مدينة «ملكي صادق» باركه الرب وقطع معه ميثاقاً هذا نصّه: «لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير إلى نهر الفرات»[٢١]. وفي موضع آخر من التوراة نجد النص التالي: «وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك. كلّ أرض كنعان لك ملكاً أبدياً»[٢٢].

ولو رجعنا إلى كليم الله موسىٰ عليه السلام واستقرأنا تاريخه منذ الولادة حتى الوفاة والرحيل إلى الملكوت الأعلىٰ، لنفهم ما هي علاقته عليه السلام بالأرض المقدسة وبيت المقدس، وهل كان يزورها ويحج إليها؟... هذا ما ستمليه علينا النصوص الواردة فيه.

وموسىٰ عليه السلام: هو ابن عمران بن قاهان بن لاوي بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وُلد في مصر، وتربىٰ في بيت «رمسيس الثاني»[٢٣] الملك الفرعوني

وعدو بني اسرائيل، الذي كان يتوقع أن تلد بنو اسرائيل ذكراً يقضي علىٰ عرشه وسلطانه(٢٤).

كبر موسىٰ عليه السلام في البيت الفرعوني، وبلغ أشده، فأنعم الله تعالىٰ عليه بالعلم والحكمة بالاضافة إلى ما تعلمه من علوم في بيت مربيه، ﴿**ولما بَلغَ أشده واستوى آتيناه حُكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين**﴾(٢٥).

لقد أعدَّ الله تعالىٰ موسىٰ عليه السلام لرسالته ودعوته بعد محنٍ كثيرة وغُربة وهجرة وابتلاءات، اصطفاه نبياً ورسولاً، وأمره بالدعوة إلى الله، فسأل موسىٰ عليه السلام من الله أن يشرك أخاه هارون معه في هذه المهمة، واجابَ الله سؤله، وأمره أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون مؤيدين بالآيات والمعجزات، وأمرهما أن يقصداه بالذات لأنه طغى وفسد في الأرض(٢٦)، وبعد جدال ومحاججات، أيقن فرعون انه لم يقهر موسىٰ وأخاه، بل هم قهروه وانتصروا عليه، فضاق فرعون ذرعاً بموسىٰ، فأتمر علىٰ قتله والخلاص من دعوته، ومن قوة بيانه التي قد تؤثر في القوم.

فجاءَ الأمر الإلهي لموسىٰ عليه السلام بالخروج من مصر مع بني اسرائيل المعذبين فيها، فانطلق بهم سرّاً متوجهاً إلى الأرض المقدسة...

خاطب موسىٰ عليه السلام قومه في صحراء سيناء، مذكراً إياهم نعم الله تعالىٰ عليهم، وخروجهم من رقّ العبودية، وهدايتهم في بعثه نبياً فيهم و...

رغم استمرار موسىٰ عليه السلام في إصلاحهم وهدايتهم، لكنهم عارضوا وعاندوا وقسوا، وغضب الله عليهم مراراً ثم تابوا ثم أنعم عليهم ثم عصوا ولجّوا ثم تابوا ثم عصوا. وكان سلوكهم مع نبي الله موسى الكليم هكذا، حتىٰ اشرفوا علىٰ حدود الأرض المقدسة، طلب موسىٰ عليه السلام منهم الدخول فيها، بعد أن أرسل رواداً للاستطلاع على الأوضاع هناك، (وهذا دليل علىٰ أنّ موسىٰ عليه السلام لم يدخلها قبل هذا الوقت ولم يعرف عنها شيئاً، وأنه سيدخلها لأول مرة في حياته)، فلما رجع الرواد أخبروهأن قومها أقوياء طوال الهامات، وأن مدنها حصينة، فارتاع بنو اسرائيل ولم

يمتثلوا لأمر موسىٰ عليه السلام بمباشرة الغزو بل قالوا له: إنّ في هذه الأرض جبابرة لا طاقة لنا بهم فلن ندخلها ماداموا فيها، فإذا خرجوا منها نلبي طلبك وندخلها، قال تعالىٰ:

﴿وإذ قال موسىٰ لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين * يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا علىٰ أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا يا موسىٰ إنّ فيها قوماً جبّارين وإنّا لن نَدخُلها حتىٰ يَخرجوا منها فإن يخرُجُوا منها فإنّا داخلون﴾[٢٧].

هكذا كانت نهاية المطاف مع موسىٰ عليه السلام نهاية الجهد والتعب والسفر الطويل والعناء في سبيل دخول الأرض المقدسة، أن يقول بنو اسرائيل لموسىٰ عليه السلام: **﴿لن ندخلها أبداً ما داموا فيها * فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون * قال ربّ إنّي لا أملك إلّا نفسي وأخي﴾**[٢٨] ثم دعا عليهم فقال: **﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾**[٢٩]. فاستجاب الله تعالىٰ دعاءه وأخبره بأنّ الأرض المقدسة لن يدخلوها وسيتيهون في صحراء سيناء أربعين سنة فلا يأخذه الحزن عليهم، إنهم خارجون عن طاعة الله تعالىٰ...

وبعد سنين التيه وقبل دخول الأرض المقدسة، أمر الله تعالىٰ موسىٰ عليه السلام أن يذهب إلى جبل «نبو» وأن ينظر إلى الأرض المقدسة ولا يدخلها، فصعد موسىٰ عليه السلام، ونظر إليها من فوق الجبل، وتوفي فوق الجبل، ودُفن على الفسجة وهو الكثيب الأحمر[٣٠].

يقول البيضاوي نقلاً عن النجار عن المدينة المقدسة التي نظر إليها موسىٰ من الجبل، يقول: «إنّ المدينة هي بيت المقدس أي «أورشليم» أو «أريحا». ولعل القول بأنها «أورشليم» الذي دعا أهلها لأن يسموا أحد أبوابها «باب حطة» والقرآن لم يبين المدينة، والتوراة لم يذكر المسألة أصلاً»[٣١].

ومما سبق يتبين لنا ـ خلال عرض حياة موسىٰ عليه السلام ـ أنّ القدس «بيت المقدس» كانت «بيت حج» موسىٰ عليه السلام أو أنه دعا قومه أن يدخلوها ليحجوا إليها ويطوفوا حولها، كلُّ ما في الأمر أنهم كانوا قد استضعفوا عند الفراعنة حيث قال الله تعالىٰ عن تلك الفترة التي عاشوها في مصر: ﴿**وإذ نجّيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يُذبّحون أبناءَكم ويستحيون نساءَكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربّكم عظيم**﴾[٣٢].

وحين استضعفوا وظُلموا أرسل الله تعالىٰ لهم موسىٰ عليه السلام ليخرجهم من الظلمات إلى النور، لكنهم أبوا أن يطيعوا الله ورسوله، فحرمهم من الأرض المقدسة وغضب عليهم.

سليمان يبني الهيكل المقدس

دخل بنو اسرائيل مدينة «أورشليم» القدس بقيادة «يوشع بن نون» سبط يوسف عليه السلام، بعد وفاة موسىٰ وهارون عليهما السلام، وكان أول بلد احتلوه هو مدينة «أريحا»، وقيل: «أورشليم»، وقد أمرهم ربّهم أن يدخلوا باب المدينة خاشعين متذللين لله تعالىٰ، وأن يقولوا «حطّة» أي حطّ يا رب عنّا خطايانا، ولكن هؤلاء القوم خالفوا أمر الله تعالىٰ ـ كعادتهم ـ فدخلوا متكبرين، وفسقوا بدل أن يستغفروا ربهم كما دعاهم لذلك[٣٣]. وولي يوشع أمرهم حتىٰ وافاه الأجل فوليَ أمرهم بعده قضاة حكموا فترة من الزمن دون أن يكون لهم ملك ذو سطوة وعزّة، وكانوا عرضة لغزوات الأُمم المجاورة لهم، وكانت العادة المتبعة عندهم أنهم إذا خاضوا حرباً ضد أعدائهم جعلوا «تابوت العهد»[٣٤] أمامهم يستنصرون به لتقوىٰ عزائمهم.

وكان بنو اسرائيل في عهد القضاة في حالة بدوية، وكانت عصبتهم تتجه نحو القبلية واستمروا كذلك حتىٰ عام (١٠٤٠) ق. حين ظهر فيهم زعيم وحد شمل قبائلهم وجمعها تحت راية واحدة، وقبض بيده علىٰ زمام الحكم وكان بذلك أول

ملك في بني اسرائيل، وقد عُرف في التاريخ اليهودي باسم «شاول» وسمّاه القرآن الكريم «طالوت».

ظهر لطالوت عدوٌ جبار عرف باسم «جالوت» وشاع شرّه وفساده، دعا طالوت قومه للجهاد في سبيل الله وحثهم على قتال أعدائهم، وخرج جالوت ووقف وسط الوادي ونادىٰ صفوف بني اسرائيل أن يختاروا رجلاً منهم لمبارزته وقال: إن استطاع رجلكم أن يغلبني صرنا لكم عبيداً، وإن ظفرت أنا به وقتلته تصيروا لنا عبيداً، فارتاع بنو اسرائيل واحجموا عن محاربته، وظل يتحداهم أربعين صباحاً ومساءً، حتىٰ برز شاب يرعىٰ غنمه، جاء يتفقد اخوته الذين اشتركوا مع جنود طالوت، أرسله أبوه ليخبره بحال أولاده، وكان هذا صغيرهم المسمىٰ «داود»، حين رأىٰ بأمّ عينيه توعدات جالوت لبني اسرائيل وتمرجله عليهم، لم يطق داود الموقف، فقذف جالوت بحجر أخرجه من مقلاعه، فضربهُ علىٰ جبهته فخرَّ الجبار علىٰ أثرها على الأرض يتلوىٰ، وفي سرعة البرق الخاطف وثبَ عليه داود واستل سيفه وقطع رأسه، فبهرت بنو اسرائيل من هذا الموقف الجبار، وأكبرت داود وجعلته مقدماً بين رجال الحرب في بني اسرائيل... ثم ما لبث فترة حتىٰ صار ملكاً عليهم.

«وتولىٰ داود الحكم في بني اسرائيل، فجمع كلّ بني اسرائيل وذهب معهم «أورشليم»... وأقام في الحصن «حصن صهيون» لذلك دعيت «مدينة داود». وبنىٰ مستديراً من القلعة... واختار القسم الشمالي... وبنىٰ فيه مذبحاً للرب»[٣٥].

ثم جعل داود ابنه سليمان وليَّ عهده قبل أن يموت، ولمّا وليّ سليمان عرش الملوكية، أتَمَّ أعمال أبيه وواصل الفتوحات ونظّمَ المملكة تنظيماً حديثاً وشيّد الهيكل، وأوتي الحكمة، وجمع بين النبوةِ والملك، والحُكم والعدل، ودعا ربّه قائلاً: ﴿**ربِّ اغفر لي وهبْ لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنك أنت الوهاب**﴾[٣٦] فاستجاب له ربه، فقال تعالىٰ: ﴿**فسخّرنا له الريح تجري بأمره رُخاءً حيث**

أصاب * والشياطين كلَّ بناءٍ وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فأمنن أو أمسك بغير حساب * وإنَّ له عندنا لزُلفىٰ وحُسن مآب﴾[٣٧].

مَلّكَ الله تعالىٰ سليمانَ ما يشاء من الملك، فوسع سليمان بيت المقدس وبنى الهيكل المسمىٰ بـ«هيكل سليمان»[٣٨]، ويسمىٰ الآن موضع الهيكل القديم (الحرم الشريف) وفي وسطه ـ في الوقت الحاضر ـ مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى الى الجنوب منه.

إذن فالهيكل المعروف في القدس كان من إنشاء نبي الله سليمان عليه السلام، لكن هذا الهيكل العظيم الضخم، لم يرد فيه أنّ سليمان بعد اتمامه للبناء أنه أذن في الناس للحج فيه، أو أنه حجَّ إليه يوماً من الأيام بأمرٍ من الله تعالىٰ...

وهنا لنا أن نتساءل من أين جاء تشريع الحج لليهود والنصارى إلى الهيكل أو الىٰ بيت المقدس واقامة الطقوس التي يمارسونها الآن في بيت المقدس؟

زكريا ويحيىٰ وخدمة الهيكل

زكريا عليه السلام من أنبياء بني اسرائيل، قضىٰ عمره الشريف في الدعوة إلى الله وخدمة الهيكل المقدس في بيت المقدس «أورشليم» وعلىٰ هذا فهو «لاوي» لأن خدّام الهيكل «لاويّوا» النسب، أي من نسل لاوي بن يعقوب النبي عليه السلام.

كان زكريا عليه السلام قد بلغ من الكبر عتياً، وامتلأ رأسه شيباً، وكانت امرأته عجوزاً عاقراً غير قادرة على الإنجاب، وبلغ زكريا درجة اليأس من أن يكون له ولد يخلفه في خدمة الهيكل المقدس والدعوة إلى الله تعالىٰ؛ لأنّ أقاربه ـ بني اسرائيل ـ أصبحوا شِرار القوم ـ حسب تعبيره عليه السلام ـ ويخاف أن لا يقيموا أمور الدين ولا يتولوا الناس بالعدل بعد موته، لعلمه بجاهلم وعدم تمسّكهم بالشريعة الإلهية وخاف تحريفها، فدعا الله تعالىٰ بنداء خفي يطلبُ منه الولد، وحفزه ما يراه من إكرام الله تعالىٰ مريم، إنه كلما دخل عليها المحراب فيسألها **﴿يا مريم أنى لك هذا﴾**[٣٩] تجيبهُ قائلة: **﴿هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾**[٤٠]

وحفزه ما يراه من عبادة مريم عليها السلام وخدمتها للهيكل المقدس، فطرق باب الدعاء إلى الله تعالىٰ، واستجاب له ربه: ﴿**فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشّرك بيحيىٰ مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً**﴾(٤١).

أجل... استجاب الله تعالىٰ دعاء نبيه زكريا عليه السلام خادم الهيكل والمسؤول عنه والمبشر والنذير لبني اسرائيل المعاندين، استجاب له بولد يخلفه في النبوة والرسالة والهداية، وأرسل إليه ملائكة تبشّره بذلك، واختار له الله تعالىٰ اسماً لم يكن أحد من قبله قد سمي بذلك الاسم: ﴿**يا زكريا إنّا نبشّرك بغلامٍ اسمه يحيىٰ لم نجعل له من قبل سمياً**﴾(٤٢) تعجب زكريا عليه السلام بهذه البشرىٰ وقال: ﴿**ربِّ أنّىٰ يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً قال كذلك قال ربك هو عليَّ هينٌ وقد خلقتك من قبلُ ولم تكُ شيئاً**﴾(٤٣).

وتحققت إرادة الله تعالىٰ وحملت زوجة زكريا واسمها «اليصابات»، ويقول أهل الكتاب: كان حملها في الزمن الذي كانت مريم حاملاً في عيسىٰ. ولا دليل علىٰ صحة هذا الادعاء عندنا ـ في وقت الحمل وزمنه ـ.

لقد كان يحيىٰ عليه السلام علىٰ أكمل أوصاف الصلاح والتقوىٰ منذ صباه، وقد أوتي الحكمة، قال تعالىٰ: ﴿**يا يحيىٰ خذ الكتاب بقوةٍ وآتيناه الحكم صبياً**﴾(٤٤). وكذلك خصّه الله تعالىٰ بحنانه ورحمته لتقواه منذ الصبا، ﴿**وحناناً من لدنا وزكاةً وكان تقياً**﴾(٤٥). هذا ما كان من حياة زكريا وعلاقته في الهيكل المقدس، وبعد وفاة زكريا عليه السلام، وقيل قُتِلَ، حسب ما جاء في انجيل برنابا: «أنّ عيسىٰ قال لليهود: ستأتي عليكم دماء الأنبياء الذين قتلتموهم إلى دم زكريا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح»(٤٦).

فتسلم يحيىٰ زمام الأمور بعد زكريا عليه السلام في أُمور الدين والقضاء وخدمة الهيكل المقدس والصلاة والعبادة في معبد الهيكل، وكان بارعاً في الشريعة الموسوية ـ شريعة موسىٰ عليه السلام ـ ومرجعاً مهماً لكلّ من يستفتي في أحكامها...

وتذكر كتب التاريخ والتفسير أنّ في زمن نبوةِ يحيىٰ عليه السلام كان أحد حكام فلسطين يقال له «هيرودس» وكانت له بنت أخ تدعىٰ «هيروديا» بارعة الجمال، عشقها عمّها وأراد الزواج منها. وكانت البنت وأمها ترغبان في ذلك، غير أن يحيىٰ عليه السلام كان معارضاً لهذا الزواج؛ لإنه محرّم في الشرائع السماوية، وكان يحيىٰ آنذاك سيداً نبياً يُحترم كلامه، ولما عرفت أم الفتاة أن يحيىٰ معارضاً لهذا الزواج، هيأت بنتها في كامل زينتها وأخرجتها علىٰ عمّها، ورقصت البنت أمامه، فسَرَّت قلبه، فقال لها: اطلبي ما تتمنين لأَسُرَّ قلبك، وكانت أُمّها قد لقّنتها أن تطلب منه رأس يحيىٰ بن زكريا في طبق، ففعلت ووفىٰ لها عمّها وأمر بقتل يحيىٰ في محرابه ومحراب أبيه بين الهيكل المقدس ومذبح الرب(٤٧).

وبذلك صار هذا المحراب له قدسية خاصة عند أتباع زكريا ويحيىٰ، يُطافُ حوله في مراسم حجّهم السنوي في ذكرىٰ يوم الغدر بهما.

منطقة الهيكل في ادوارها الثلاثة من عهد سليمان حتى العهد الاسلامي «عن كتاب» دليل فلسطين التاريخي

ومن خلال ما تقدم لم نجد أن زكريا أذن للناس بالحج في بيت المقدس ومحراب صلاة زكريا أو ابنه يحيىٰ مع أنهم كانوا في خدمة بيت المقدس من الناحية الدينية.

روح الله عيسىٰ عليه السلام والقدس

الىٰ جذع النخلة في الموضع الذي فيه مدينة (بيت لحم)، علىٰ بضعة كيلومترات من بيت المقدس، جاءت بنت عمران «مريم القديسة» لتستتر أو لتعتمد على النخلة اليابسة، وهي في حالة المخاض قالت في نفسها: ﴿**يا ليتني متُّ قبل هذا وكنتُ نسياً منسياً * فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً * وهزي اليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطباً جنياً * فكلي واشربي وقري عيناً**﴾(٤٨).

لقد أراد الله تعالىٰ أن يسكن روع مريم القديسة العذراء، ولتعلم أن من أوجد لها الرطب من النخلة اليابسة في الشتاء، وأوجد لها الماء الجاري في تلك الهضبة التي كانت عليها من الجبل ـ جبل صهيون ـ قادر أن يرد عنها كلّ سوء وحتىٰ عيب العائبين، وقذف القاذفين، وسيأتي المولود الذي خلقه الله بكلمة «كن» علىٰ غير الطريقة العادية في التوالد، وهذا الولد اسمه المسيح عيسىٰ، وسيجعله الله تعالىٰ ذا مكانة في الدنيا وذا جاه وشرف وعلو قدر، كما أنه في الآخرة من الصفوة المقربين الى الله تعالىٰ... وإنه خاتم أنبياء بني اسرائيل، ومَثَلُ خلقهِ كمثل آدم عليه السلام: ﴿**إن مثل عيسىٰ عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾(٤٩).

وضعت مريم العذراء مولودها! وهي وجلة من القوم وبما سيرمونها من الفاحشة والفجور، لكنَّ الملك جبرئيل «الوحي» علّمها بأمرٍ من الله تعالىٰ، أنها إذا أتت قومها أن تقول لهم: ﴿**إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً**﴾(٥٠).

وجاءت قومها تحمله، سألوها ﴿**يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أُمك بغياً**﴾(٥١) فأشارت إلى وليدها، وتكلم بإذن الله تعالىٰ قائلاً: ﴿**إنّي**

عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً * وجعلني مباركاً أينَ ما كنتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حيّاً ...﴾[٥٢].

وبذلك ظهرت براءة مريم العذراء العابدة القديسة المنذورة لبيت المقدس والعاكفة علىٰ صلاتها فيه.

ومضت ثلاثون عاماً[٥٣] علىٰ هذه المعجزة لمريم عليها السلام أتتها المعجزة الأخرىٰ أن بُعث عيسىٰ روح الله عليه السلام نبياً ورسولاً في بني اسرائيل وأُنزل عليه الإنجيل، وبدأ بالدعوة إلى الله، ففريق صدّقوه واتبعوه حقاً، وفريقٌ كذّبوه وحاربوه، وفريقٌ ثالث انبهرت عقولهم به وبشخصه ومعجزة مجيئه إلى الدنيا من غير أب ومن إحيائه الموتىٰ وشفائه للأكمه والأبرص وغيرها من المعاجز التي جاء بها عليه السلام، هذا الفريق من الناس جعلوه إلهاً يُعبد أو إبناً لله الكبير وأنه نظير للمعبود الأب وغيرها من الاصطلاحات التي ميزووا به بقية مخلوقات الله تعالىٰ...

أجل... أنزل الله تعالىٰ علىٰ عيسىٰ عليه السلام الإنجيل: ﴿**وقفّينا بعيسىٰ بن مريم وآتيناه الإنجيل**﴾[٥٤]. ولكن اين هو الإنجيل الذي من عند الله والذي ذكره القرآن الكريم؟

لقد ضاع «الإنجيل الأصل» وبقيت أناجيل متعددة محرّفة كتبتها أيادي النصارىٰ، أو بكلمة أخرىٰ ألّفها تلاميذ المسيح عليه السلام من بعده بزمن طويل، وهي عبارة عن تعريف بأحوال المسيح وأعماله وأقواله وعظاته ومعجزاته وخوارق العادات التي أجراها الله تعالىٰ علىٰ يده.

أهم الأناجيل التي تعترف بها الكنيسة، أربعة هي:

١ ـ انجيل متى ٢ ـ انجيل مرقس ٣ ـ انجيل لوقا ٤ ـ انجيل يوحنا.

«إنّ هذه الأناجيل وغيرها من الأناجيل الكثيرة، لم تكتب زمن عيسىٰ عليه السلام بل بعد عهده بفترة، قام بعض تلامذته وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم وكتبوا قصصاً كثيرة. وكلّ واحد يسمي ما كتبه «انجيلاً» حتىٰ قيل: إنّ الأناجيل بلغت:

نيفاً ومائة انجيل»[٥٥].

والجدير بنا بيانه: أن هذه الأناجيل في الظاهر لا ذكر فيها للأمر بالحج إلى بيت المقدس أو إلى أماكن ذكريات عيسىٰ عليه السلام أو مسقط رأسه مثلاً، ولكنّا نرى النصارىٰ يحجون إلى بيت المقدس والىٰ جبل صهيون حيث مسقط رأس المسيح عليه السلام وبيت لحم.

هذا المكان في القدس بدأ الحج إليه منذ أن بُنيت أول كنيسة هناك...

«... وبيت لحم، بعثها الامبراطور قسطنطينوس الأول الكبير، بعثها مدينة دينية وبنىٰ فيها عام ٣٢٦م كنيسة إلى جانب مغارة يرجح أن يكون المسيح ولد فيها، وهي لا تزال قائمة إلى اليوم، كما بنى فيها (يوستينيانوس) الأول ٥٢٦ ـ ٥٦٥ كنيسة مزخرفة بالفيسانوس...»[٥٦].

وعلىٰ هذا، فليس هناك مجال للاعتقاد بأنّ المسيح عليه السلام جعل أوامر الحج مكان مسقط رأسه الشريف، وإنما طقوس وألاعيب نسجت بعده عليه السلام.

إسراء محمد صلى الله عليه وآله إلى القدس

وبُعث محمد صلى الله عليه وآله بعد ميلاد المسيح بـ(٦١٠) أعوام؛ ليكون خاتماً لجميع الأنبياء والرسل وسيدهم، وخصه الله تعالىٰ بخصائص ومعجزات كثيرة كان منها الإسراء والمعراج.

لقد أسريَ بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصىٰ[٥٧] في بيت المقدس، ثم عُرج به من بيت المقدس إلى السموات العُلىٰ، وقد اتفقوا علىٰ وقوع الإسراء والمعراج لوجود النصّ عليهما في القرآن والسُنة، قال تعالىٰ: ﴿**سبحان الذي أسرىٰ بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصىٰ الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا...**﴾[٥٨].

جاء عن القمي عن أبيه عن ابن أبي عُمير عن هُشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام في تفسير هذه الآية قال: جاء جبرئيل وميكائيل وإسرافيل بالبراق إلىٰ

رسول الله ﷺ فأخذ واحد باللجام وواحد بالركاب وسوى الآخر عليه ثيابه، فتضعضعت البراق فلطمها جبرئيل ثم قال لها: اسكني يا براق فما ركبك نبيّ قبله ولا يركبك بعده مثله.

قال: فرفَّت به ورفعته ارتفاعاً ليس بالكثير ومعه جبرئيل يريه الآيات من السماء والأرض. قال: فبينا أنا في مسيري إذ نادىٰ منادٍ عن يميني: يا محمد فلم أجبه ولم التفت إليه، ثم نادىٰ منادٍ عن يساري: يا محمد فلم أجبه ولم التفت إليه، ثم استقبلتني امرأة كاشفة عن ذراعيها من كلّ زينة الدنيا فقالت: يا محمد انظرني حتىٰ اكلمك فلم التفت إليها، ثم سِرتُ فسمعتُ صوتاً أفزعني فجاوزتُ، فنزل بي جبرئيل فقال: صلِّ فصليتُ. فقال: أتدري أين صليتَ؟ قلتُ: لا، فقال: صليتَ بطورِ سيناء حيث كلّم الله تعالىٰ موسىٰ عليه السلام تكليماً، ثم ركبتُ فمضينا ما شاء الله ثم قال لي: اِنزل فصلِّ فنزلتُ وصليتُ فقال لي: أتدري أين صليتَ؟ فقلتُ: لا، قال: صليتَ في بيت لحم، وبيت لحم بناحية بيت المقدس حيثُ ولد عيسى بن مريم.

ثم ركبتُ فمضينا حتى انتهينا إلى بيت المقدس، فربطتُ البراق بالحلقة التي كانت الأنبياء تربط بها، فدخلتُ المسجد ومعي جبرئيل إلى جانبي، فوجدنا إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ فيمن شاء الله من أنبياء الله عليهم السلام فقد جمعوا إليَّ واقيمت الصلاة ولا أَشُكُ إلّا وجبرئيل يستقدمنا، فلما استووا أخذ جبرئيل بعضدي فقدمني وأممتهم ولا فخر.

ثم أتاني الخازن بثلاثِ أوانٍ وإناء فيه لبن وإناء فيه خمر وإناء فيه ماء، وسمعتُ قائلاً يقول: إن أخذ الماء غرق وغرقت أُمته، وإن أخذ الخمر غوىٰ وغويت أُمته، وإن أخذ اللبن هدىٰ وهديت أُمتُه، قال: فأخذتُ اللبن وشربتُ منه، فقال لي جبرئيل: هديت وهديت أُمتك. ثم قال لي: ماذا رأيت في مسيرك؟ فقلتُ: ناداني منادٍ عن يميني فقال: أوأجبتهُ؟ فقلتُ: لا ولم ألتفت إليه فقال: داعي اليهود، لو أجبتهُ لتهودت أمتك من بعدك، ثم قال ماذا رأيت؟ فقلتُ: ناداني منادٍ عن يساري

فقال لي: أوأجبته؟ فقلتُ: كلا ولم ألتفت إليه فقال: ذاك داعي النصارىٰ ولو أجبته لتنصرت أمتك من بعدك.

ثم قال: ماذا استقبلك؟ فقلتُ: لقيتُ امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كلّ زينة الدنيا، فقالت: يا محمد انظرني حتىٰ أكلمك. فقال: أوكلمتها؟ فقلتُ: لم أكلمها ولم ألتفت إليها فقال: تلك الدنيا ولو كلمتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة(٥٩).

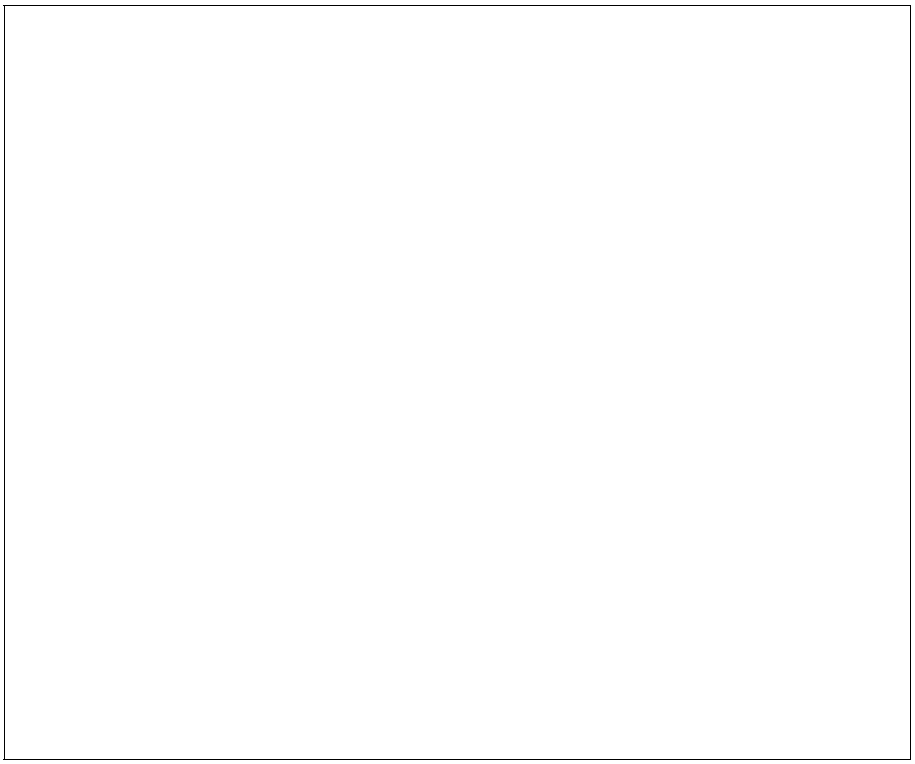

الصخرة المشرفة، منها عرج رسول الله ﷺ إلى السماء

﴿سبحان الذي أسرىٰ بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ﴾

ومن بيت المقدس انتقل النبي محمد ﷺ إلى السماء ـ فكان المعراج ـ وهناك فُرض عليه وعلىٰ أُمته الصلوات الخمس في اليوم والليلة وغيرها، ثم عاد

رسول الله ﷺ إلى مكة وجَرىٰ ذلك كُله في ليلة واحدة[٦٠]...

ومن تلك الليلة قدّس المسلمون المسجد الأقصىٰ في بيت المقدس، وتوجهوا إليه في صلاتهم بأمرٍ من الله ثلاثة عشر عاماً وبضعة أشهر.

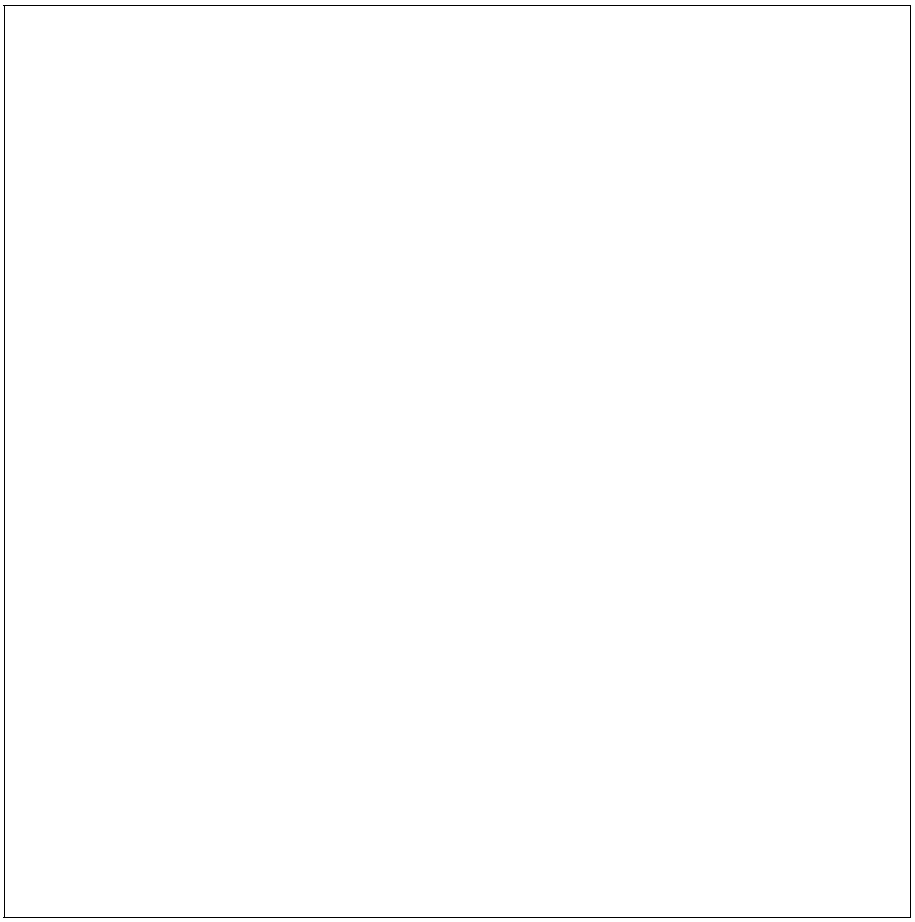

المسجد الأقصىٰ حالياً

ولم يكن عجباً أن يتخذه المسلمون مكاناً مقدساً لهم، وأن يكون عندهم بالمنزلة الثانية من الحرم المكّي والمدني من حيث القداسة والصيانة والرعاية... فصلاة النبي فيه إماماً لأنبياء الله دليلاً علىٰ أن الله تعالىٰ يورث الأرض لعباده

الصالحين، ودليلاً علىٰ قدسية هذا المكان العظيم، لكن القدسية شيء والحج الذي نحن بصدده شيء آخر.

فالمسلمون يقدسون بيت المقدس، ويعتبرونه من مقدساتهم المهمة، لكنهم لم يحجوا إليه لأنهم لم يؤمروا بذلك... ولم تأمر به الأديان السماوية السابقة.

والجدير بالذكر أنّ النبي محمداً ﷺ قيّد البراق بالصخرة المقدسة[٦١] حين بلغ به الإسراء إلى بيت المقدس، وحتىٰ يومنا هذا يُسمىٰ الجدار الغربي للحرم القدسي بجدار البُراق[٦٢]، وجاء في الروايات أيضاً أنّ النبي ﷺ صلىٰ علىٰ أطلال هيكل سليمان إماماً لإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام وبقية الأنبياء...

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصىٰ من معجزات حبيب الله محمد ﷺ وهي تربط بين عقائد التوحيد الكبرىٰ من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إلىٰ محمد ﷺ خاتم النبيين، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أُريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الخاتم لمقدسات الرُسل قبله، واشتمال رسالته علىٰ هذه المقدسات، وارتباط رسالته بها جميعاً، قال تعالىٰ: ﴿**إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده**﴾[٦٣].

وهذه أروع رابطة وأروع علاقة بين الإسلام وبيت المقدس (محل عبادة الأنبياء)، وقد مثلها النبي الأكرم محمد ﷺ.

لقد احترم الإسلام بيت المقدس، فهو فعلاً بيت مقدس ومحل عبادة لله تعالىٰ، وفيه مقدسات الأنبياء من أولهم حتىٰ خاتمهم صلى الله تعالى عليهم جميعاً وسلم، ولكن مع هذا لم يجعله لحظة واحدة مركزاً للحج ولا أخبر نبيه الكريم أنه أمر أحداً من الأنبياء بالحج إليه، بل الاتجاه المأمور به منذ خلق البشرية إلى نهاية الأرض، بالحج إلىٰ مكة المكرمة حيث بيت الله العتيق، فالإذن إليه لا لغيره.

● الكعبة لا القدس مركزاً لحج الأنبياء...

من كلّ ذلك، ومن خلال ما أوردناه من حياة الأنبياء، لم نقرأ أنهم حجوا بيت المقدس، كما قد يتبادر إلى الذهن من خلال اسم البيت وقدسيته، ووجود الأنبياء فيه وممارستهم بعض شعائرهم... وعباداتهم و...

لكن البيت الحقيقي الذي حجّه الأنبياء ومارسوا فيه شعائر الله تعالىٰ، هو بيت الله العتيق والكعبة الشريفة، كما وردت في الروايات عن النبيّ الأكرمﷺ وعن آله الأطهار أنه أول بيت وضع للحج فيه، وهو أول بيت لله عُبد الله تعالىٰ فيه، وهو أول بيت أسست شعائر الحج فيه، إلّا أنّ المنحرفين عن الجادة المستقيمة، اتّخذوا أماكن حج وشعائر حج علىٰ غرار الحج لبيت الله.

وكما أنّ لبيت الله الأولوية في كلّ شيء، فإنه أعظم بيت وضع على الأرض، فقد قال الأزرقي: حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: «أخبرني ابن جريج، قال: بلغنا أنّ اليهود قالت: بيت المقدس أعظم من الكعبة؛ لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه في الأرض المقدسة، وقال المسلمون: الكعبة أعظم، فبلغ ذلك النبيّ محمداًﷺ فنزل: ﴿**إنّ أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً**﴾ حتىٰ بلغ ﴿**فيه آيات بينات مقام ابراهيم**﴾ وليس ذلك في بيت المقدس، ﴿**ومن دخله كان آمناً**﴾ وليس ذلك في بيت المقدس»[٦٤].

وبيت المقدس بيت مُقدّس واقعاً، وبيت عُبد فيه الله، وكلّ بيت يُعبد فيه الله فهو مسجد، وكُلُّ مسجد هو بيت الله، لكن الكعبة شيء آخر، ولها شأنٌ آخر، فقد قال الله تعالىٰ لآدمعليه السلام: «سأجعلُ فيها[٦٥] بيوتاً ترفع لذكري، ويسبحني فيها خلقي، وسأبوئك فيها بيتاً أختاره لنفسي، وأختصّه بكرامتي، وأوثره علىٰ بيوت

الأرض كلّها باسمي، فأسميه بيتي، وأنطقه بعظمتي، وأجوزه بحرماتي، وأجعله أحقّ بيوت الأرض كلّها وأولاها بذكري، وأضعه في البقعة التي اخترتُ لنفسي، فإني اخترتُ مكانه يوم خلقت السموات والأرض... ومن عظّم شأنه عظم في عيني، ومن تهاون به صغر في عيني، ولكلّ ملك حيازة ما حواليه، وبطن مكة خيرتي وحيازتي وجيران بيتي وعمارها وزوّارها... فأجعله أول بيت وضع للناس...»[٦٦].

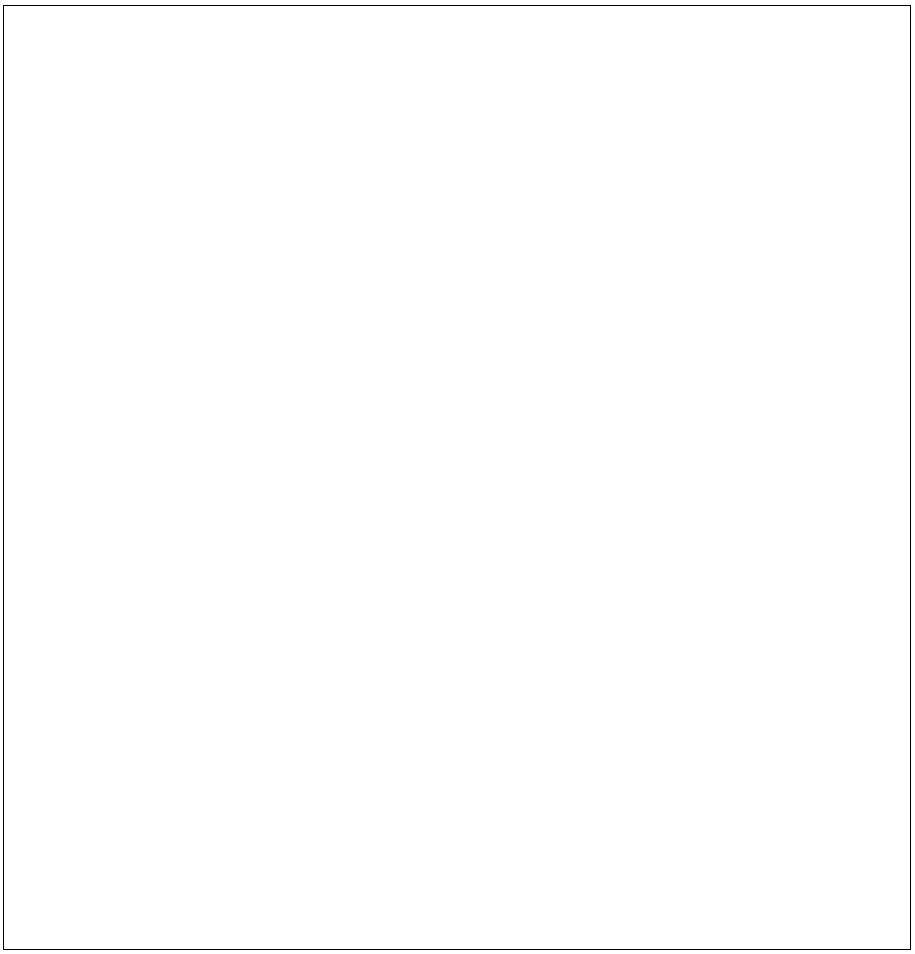

المسجد الحرام

● **الكعبة في التاريخ**

لا أعتقد أنّ أحداً يجهل قِدم الكعبة الشريفة، فلهذا البيت الشريف تاريخ طويل وتاريخ عريق موغل في القِدم، فهو ـ كما ذكرنا ـ أول بيت وضع للناس ليعبدوا فيه الله سبحانه، من هنا جاءت تسمية «بيت الله العتيق».

ولا أظنّ أحداً يجهل القداسة التي تمتع بها هذا البيت الشريف، الذي حاز من الشرف في امتداد تاريخه الطويل، أن يُعتق زائره وقاصده، من ذنوبه وآثامه ومعاصيه، ويخرج منه كيوم ولدته أُمه، ويحصل علىٰ مراده في الدعوة فيه، إضافة الىٰ ذلك فقد كان مركزاً لحج الملائكة قبل آدم عليه السلام بألفي عام، ثم حج إليه أبو البشر آدم عليه السلام وولده من بعده...

ولما جاء زمن نوح عليه السلام والطوفان الكبير الذي حدث في أيامه، زالت معالم البيت، وقيل رُفع إلى السماء، وبقي أثره على الأرض فقط، حيث كان أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السيول. والناس يعرفون أنّ هذا المكان هو موضع بيت الله الكريم، وكان يزوره المظلوم والهارب من جور الأرض وظلمها، فيدعو الله فيه فيستجاب له، حتىٰ بوّأه الله تعالىٰ لإبراهيم الخليل عليه السلام، ومَنَّ مرةً أخرىٰ علىٰ عباده بالحج لهذا البيت الشريف المقدس والعبادة فيه والدعاء وطلب الحاجة من الله تعالىٰ فيه للدنيا والآخرة...

أما الموقع الجغرافي للكعبة الشريفة: فهي في منتصف الجزيرة العربية الغربي، علىٰ بُعد ثمانية وأربعين ميلاً من البحر الأحمر في وادٍ غير ذي زرع، تحيطها جبالٌ جرداء تكادُ تُطبقُ عليها من جميع الجهات، صيفها حار لا يُطاق. وموقعها هذا جعلها محطة صالحة في طرق القوافل الطوال التي تجمع في بعض الأحيان ألف جمل بعضها وراء بعض، والتي تحمل المتاجر بين جنوبي بلاد العرب (ومن ثم بين الهند وافريقية الوسطىٰ) وبين مصر، وفلسطين، وبلاد الشام. وكان التجار أصحاب هذه التجارة يؤلفون فيما بينهم شركات محاصة، ويسيطرون علىٰ أسواق

عُكاظ[٦٧].

ويقومون بالشعائر الدينية المجزية حول الكعبة وحجرها الأسود المقدس[٦٨].

وقد وصف الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة الكعبة، بقوله: «أَلا ترونَ أنّ الله سبحانه اختبر الأولين من لدُن آدم ـ صلوات الله عليه ـ إلى الآخرين من هذا العالم بأحجارٍ لا تضر ولا تنفع، ولا تُبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقلّ نتائق الدنيا مدراً، وأضيق بطون الأودية قُطراً، بين جبالٍ خشنة ورمالٍ دَمِثة، عيون وشلة، وقُرًى منقطعة، لا يزكو بها خُفّ، ولا حافر ولا ظلف»[٦٩].

ثم بيّن عليه السلام قِدم الكعبة بقوله: «ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابةً لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقىٰ رحالهم، تهوىٰ إليه ثمار الأفئدة. من مفاوزِ قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحارٍ منقطعة حتىٰ يهزّوا مناكبهم ذُللاً، يُهلّلون لله حوله، ويرملون علىٰ أقدامهم شُعثاً غُبراً له. قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم و...»[٧٠].

وعن تاريخ بناء الكعبة وإعادة بناءها وتجديدها يحدثنا ولِ ديورانت قائلاً: «إنّ الكعبة بُنيت ثم أُعيد بناؤها عشر مرات، فقد بناها في فجر التاريخ ملائكة السماء، وبناها في المرة الثانية آدم أبو البشر، وفي المرة الثالثة ابنه شيث ثم بناها في المرة الرابعة إبراهيم وإسماعيل... وبناها في المرة السابعة قُصي زعيم قبيلة قريش، وبناها في المرة الثامنة كِبارُ قُريش في حياة محمد صلى الله عليه وآله عام (٦٠٥)م وبناها في المرتين التاسعة والعاشرة زُعماء المسلمين في عامي ٦٨١ و٦٩٦م والكعبة كما بُنيت في المرة العاشرة هي كعبة هذه الأيام في معظم أجزائها»[٧١].

وفي بيان قِدم الكعبة يقول الإمام الباقر عليه السلام: «لما أراد الله تعالىٰ أن يخلق الأرض أمر الرياح فضربن متن الماء حتىٰ صار موجاً، ثم أزبد فصار زبداً واحداً

فجمعه في موضع البيت، ثم جعله جبلاً من زبد، ثم دحا الأرض من تحته وهو قول الله عزّوجل: ﴿إن أول بيت...﴾ فأول بيت خُلق من الأرض الكعبة، ثم مدت الأرض منها»[٧٢].

هذا موجز سريع استعرضتُ فيه تاريخ الكعبة؛ ليكون مدخلاً ومقدمة لقراءتها من التاريخ وتمهيداً للتفصيلات اللاحقة...

هبوط آدم عليه السلام وبناء الكعبة

آدم عليه السلام، الكعبة الشريفة، قَدِما الينا من أعماق التاريخ، قَدِما مجملين، فقد ورد ذكر آدم عليه السلام ضرباً في القرآن الكريم ووردت قصته وأمر خلقه وهبوطه الأرض، ووردت الكعبة كمركز مقدس هام في القرآن الكريم أيضاً... ولكن متىٰ بُنيت؟ وهل كان آدم عليه السلام فعلاً هو بانيها أم هناك غيره؟ فذلك ما حدثتنا به الروايات، والروايات في هذا الموضوع كثيرة تحكي صراحةً بأنّ باني الكعبة الأول هو آدم، ومن هذه الروايات الكثيرة في بناء آدم عليه السلام الكعبة حين هبوطه إلى الأرض، نذكر ما ذكره الأزرقي في كتابه «أخبار مكة»:

فقد ورد عنه: «وحدثني جدي قال: وحدثني إبراهيم بن محمد بن أبي يحيىٰ عن الزهري، عن عبدالله بن عبدالله عتبة بن مسعود، عن ابن عباس رضوان الله تعالىٰ عليه قال: كان آدم عليه السلام أول من أسس البيت، وصلىٰ فيه حتىٰ بعث الله الطوفان...»[٧٣].

وفي الروايات الأخرىٰ تفصيلات يطول ذكرها... ولكن الحقيقة أنّ القراءة الدقيقة والتفصيلية، لا مجال لها في هذا الموضوع، وإنما أردنا مجرد ذكر ما ورد في تاريخ بناء الكعبة، وهذه رواية أخرىٰ عن ابن عباس ونكتفي بها؛ لأن ما جاء في هذا الأمر روايات يشابه بعضها الآخر.

يقول ابن عباس: «لما أهبط الله تعالىٰ آدم من الجنة كان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض وهو مثل الفلك في رعدته، قال: فطأطأ الله عزّوجل منه ستين

ذراعاً، فقال يا رب مالي لا أسمع أصوات الملائكة ولا أحسهم؟ قال: خطيئتك يا آدم ولكن اِذهب فابن لي بيتاً فطف به واذكرني حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي، قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطا، فطويت له الأرض وقبضت له المفاوز فصارت كلّ مفازة يمرّ بها خطوة وقبض له ما كان من مخاض ماء أو بحر فجعل له خطوة، ولم تقع قدمه في شيء من الأرض إلّا صار عمراناً وبركة حتىٰ انتهىٰ مكة فبنى البيت الحرام، وإنّ جبرئيل عليه السلام ضرب بجناحيه الأرض فأبرز عن أسٍ ثابت على الأرض السُفلىٰ، فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلاً، وإنه بناه من خمسة أجبل: من لبنان، وطور سيناء، والجودي، وحواء، وطور زيتا حتىٰ استوىٰ علىٰ وجه الأرض»[٧٤].

فإن صحت هذه الأخبار والروايات التي وصل إلينا منها الحشد الكثير، فيكون الباني والمؤسس والحاج الأول للكعبة الشريفة هو أبو البشر آدم عليه السلام، ولكن القرآن الكريم لم يخبرنا بهذه التفاصيل إنما جاءت قصة آدم عليه السلام مجملة مختصرة...

إنّ ارتباط آدم عليه السلام بالكعبة الشريفة، ووجودها في زمانه، وفي عمق التاريخ يعطيها أهمية كُبرىٰ فوق أهميتها الذاتية الحقيقية، التي أعطاها الله تعالىٰ، ونسبها اليه عزّوجل...

لقد كرّمها الله تعالىٰ يومَ خُلقت، ويوم حجّها أول إنسان، والى اليوم ما زالت ذلك الصرح الإلهي المقدس العظيم...

زوال معالم الكعبة في الطوفان

كلّ شيء آيل إلى التغير والتبدل والزوال، علىٰ مستوى الدنيا، ولا يبقىٰ سوى الله تعالىٰ ﴿**كلّ شيء هالك إلّا وجهه**﴾[٧٥] ﴿**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام**﴾[٧٦].

ولكن عين الله تعالى التي لا تنام، حارسة لمن تحب وما تحب وما تريد أن يبقى

الىٰ قيام الساعة.

فحين غضب الله تعالىٰ علىٰ قوم نوح عليه السلام وطغى الطوفان الكبير علىٰ سطح الكرة الأرضية، لم تكن الكعبة المشرفة بمنأىٰ عن هذا الطوفان، فغرقت ضمن ما غرق من موجودات الكرة الأرضية، ولكونها مركزاً إلهيّاً مقدساً لم تكن كساير أشياء الأرض التي غرقت وانتهىٰ كلّ شيء، وإنما أراد الله لها شيئاً آخر، أراد لها الله بقاءً أبدياً إلى قيام الساعة؛ لتكون نقطة الاتصال المركزية بين العبد وربّه، من هنا ومن خلال اللطف الإلهي الشامل لكلّ الوجود، قيض الله لها نبياً من عظماء الأنبياء ألا وهو إبراهيم الخليل عليه السلام وابنه الحليم اسماعيل عليه السلام ليعيدا بناءها من جديد، وليرفعا قواعد البيت... وهكذا بلغ أمر الله وتربعت الكعبة على سطح الكرة الأرضية؛ لتكون شامخة وعالية، وامتداداً بين السماء والأرض.

والقرآن الكريم لم يتحدث عن الطوفان بشكل مفصل، وكيف كانت الكعبة وكيف زالت[٧٧]، وإنما ذكر الموضوع بشكل مجمل، تعرض بشكل أساس عن العبرة والموعظة دون التفاصيل والجزئيات والأجزاء والأماكن.

أما الروايات التي تحكي حال الكعبة الشريفة في الطوفان الكبير فهي كثيرة جدّاً، لا يسعنا سوىٰ ذكر واحدة أو اثنتين ونكتفي بها.

عن ابن عباس رضوان الله عليه قال: «فكان أول من اسس البيت وصلّىٰ فيه وطاف به آدم عليه السلام حتىٰ بعث الله تعالىٰ الطوفان: وكان غضباً ورجساً. قال: فحيث ما انتهىٰ الطوفان ذهب ريح آدم عليه السلام قال: ولم يقرب الطوفان أرض السند والهند، قال: فدَرَسَ موضع البيت في الطوفان حتىٰ بعث الله تعالىٰ ابراهيم واسماعيل فرفعا قواعده وإعلامه...»[٧٨].

وفي رواية مجاهد قال الأزرقي: قال: «بلغني أنه لما خلق الله عزّوجل السماوات والأرض كان أول شيء وضعه فيها البيت الحرام وهو يومئذ ياقوتة حمراء جوفاء لها بابان أحدهما شرقي والآخر غربي فجعلهُ مستقبل البيت المعمور،

فلما كان زمن الغرق رُفع في ديباجتين فهو فيهما إلى يوم القيامة، واستودع الله عزّوجل الركن أبا قبيس قال: وقال ابن عباس: كان ذهباً فرفع زمان الغرق فهو في السماء. وعن سعيد عن مقاتل يرفع الحديث إلى النبي ﷺ في حديث حدّثَ به آدم عليه السلام قال: أي ربّي إنّي أعرف شقوتي، إني لا أرىٰ شيئاً من نورك يعبد، فأنزل الله عزّوجلّ عليه البيت المعمور علىٰ عرض هذا البيت في موضعه من ياقوتة حمراء، ولكن طوله كما بين السماء والأرض، وأمره أن يطوف به، فأَذهبَ الله عنه الغم الذي كان يجده قبل ذلك، ثم رُفع علىٰ عهد نوح عليه السلام»[٧٩].

ابراهيم عليه السلام يجدد بناء الكعبة

والنبي العظيم أبو الأنبياء خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام، جاء ليعيد مجد الكعبة الشريفة التي درسها الفيضان والطوفان النوحي، ولكن من أين بدأ؟ وأين كان مكانها؟ وفي أية بقعة من بقاع الكرة الأرضية؟ إنّ موضع الكعبة كان قد خُفي ودرس في زمن الغرق فيما بين عهد نوح عليه السلام وابراهيم عليه السلام، وقد ذكر مجاهد، كان موضع الكعبة أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السيول غير أنّ الناس يعلمون أنّ موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه، وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض ويدعو عنده المكروب، فقلَّ من دعا هنالك إلّا استجيب له، وكان الناس يحجون الىٰ موضع البيت حتىٰ بوأ الله تعالىٰ مكانه لإبراهيم عليه السلام لما أراد من عمارة بيته وإظهار دينه وشرائعه، فلم يزل منذ أهبط الله تعالىٰ آدم عليه السلام إلى الأرض معظماً محرماً بيته تتناسخه الأُمم والملل أمة بعد أمة وملّة بعد ملّة، قال: وقد كانت الملائكة تحجهُ قبل آدم عليه السلام[٨٠].

وقد ذكرنا في الفصل الثالث، كيفية بناء إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل عليه السلام البيت الحرام، والكعبة الشريفة بالتفصيل، وهنا نضيف كيفية مجيء ابراهيم عليه السلام إلى هذا المكان المقدس، كيف كان والىٰ اين آل.

فقد خرج ابراهيم عليه السلام من الشام، أو من مدينة أورشليم «بيت المقدس» يحمل

زوجته وولده الوحيد اسماعيل عليه السلام، فخرج بهم ومعه جبرئيل عليه السلام يدله علىٰ موضع البيت ومعالم الحرم، يقول محمد بن إسحاق: «فخرج... لا يمرّ ابراهيم عليه السلام بقرية من القرى إلّا قال: يا جبرئيل أبهـذا أُمرت؟ فيقول له جبرئيل عليه السلام: أمضه حتىٰ قـدم

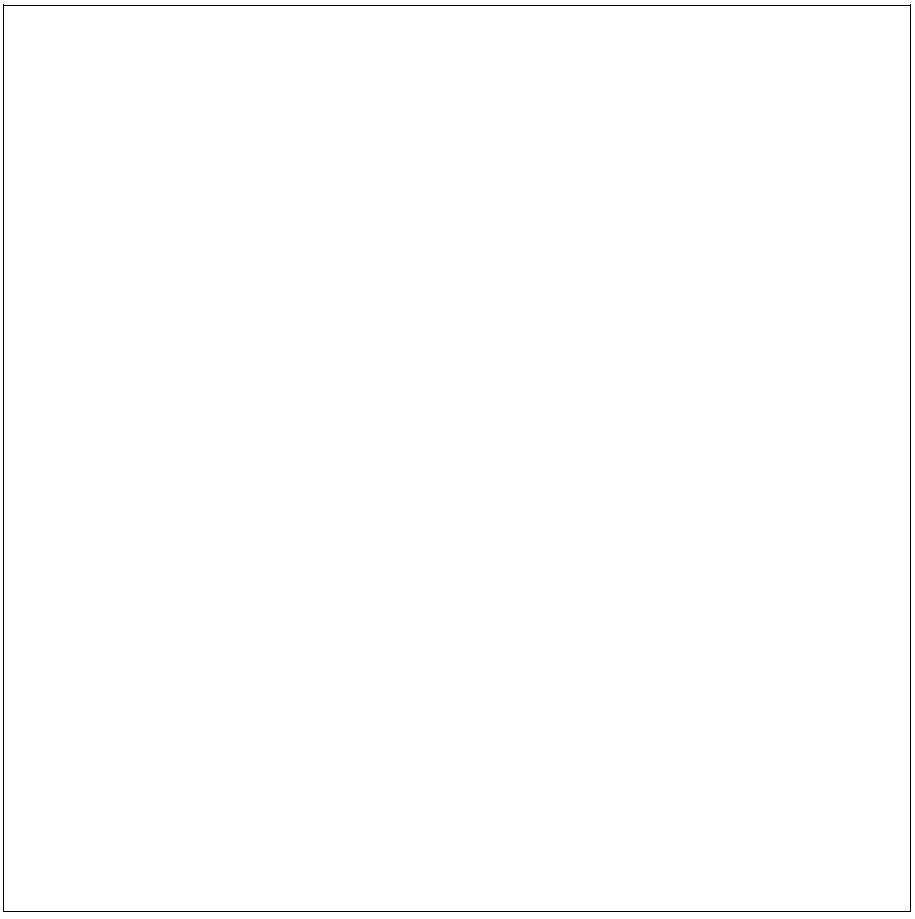

الحجر الأسود

مكة وهي إذ ذاك عضاة من سلم وسمر، وبها ناس يُقال لهم العماليق خـارجاً مـن مكة فيما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة. فقال ابراهيم عليه السلام لجبريل: أهاهنا أُمرتُ أن أضعهما؟ قال: نعم! قال: فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه، وأمر

هاجر أمّ اسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً ثم قال: ﴿**ربنا إنّي أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع**﴾[٨١] ثم انصرف إلى الشام وتركهما عند البيت الحرام[٨٢]، في رعاية الله ورحمته.

وقال ابن جريج: «وبلغني أنّ جبرئيل عليه السلام حين هزم بعقبة في موضع زمزم قال لأُم اسماعيل: .. ـ وأشار لها إلى موضع البيت ـ هذا أول بيت وضع للناس، وهو بيت الله العتيق، وأعلمني أنّ ابراهيم واسماعيل يرفعانه للناس ويعمرانه فلا يزال معموراً، محرماً، مكرماً إلى يوم القيامة، ويضيف ابن جريج: أنّ أمّ اسماعيل ماتت قبل أن يرفعه ابراهيم وإسماعيل، ودُفنت في موضع الحجر»[٨٣].

زواج إسماعيل عليه السلام وولاية أبنائه الكعبة

ليس من المحتم أن ندرك حكمة الله تعالىٰ للوهلة الأولىٰ، فقد يأمر الله أمراً يبدو في الظاهر غير مناسب، ولكن مناسبته وأهميته تظهر أخيراً، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحالة الإنسانية، إلى استعجال الانسان في الأمور وطلب الحقيقة فوراً دون تأنٍ، قال تعالىٰ: ﴿**خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون**﴾[٨٤].

وهذا ما حدث لهاجر زوجة النبي ابراهيم عليه السلام المؤمنة بالله الطائعة لأمره وأمر نبيه، والدة اسماعيل عليه السلام الحليم الممتثل لأوامر الله تعالىٰ، وصاحب تلك الاطاعة المثالية في الذبح وبناء الكعبة وغيرها من الأمور...

ولمثالية النبي اسماعيل عليه السلام وسلوكه القويم منحه الله تعالىٰ ولاية أقدس بقعة من بقاع الأرض، وأحبّها إلى الله، الكعبة الشريفة ومن بعده ولاية أبنائه عليها...

وإذا رجعنا إلى قصة ابراهيم عليه السلام وزوجه هاجر ووحيدهما اسماعيل عليه السلام والمكان المقفر الذي أُنزلوا فيه، فسنجد الحكمة والموعظة والمعجزة.

لقد استجاب النبي ابراهيم عليه السلام لأمر ربه الكريم، إذ أخذ هاجر وطفلها الرضيع اسماعيل من الشام إلى أرضٍ قفراء خالية بعيدة عن العمران، ولا ماء ولا غذاء،

فأنزلها وقفل راجعاً، تبعته هاجر ملتاعة وقالت له، إلى أين تذهب؟ ولمن تتركنا بهذا الوادي الموحش المقفر؟ قالت له ذلك مراراً خائفة وجلة، مستعطفة، وهو يمضي في سبيله، عندئذ قالت: الله آمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا الله، وحُسن ظنها وإيمانها بالله تعالىٰ طمأن قلبها، وقيل: إن جبرئيل عليه السلام طمأن قلبها، أن أخبرها أنّ هذا المكان سيكون مكان خير وبركة ومهوى الأفئدة.

وقد خطهُ الله تعالىٰ لها ولابنها أن جعل البركة في إسماعيل وحيدها، وجعله أمة، وجعل ذلك المكان المقفر تهوي إليه أفئدة الناس، وجعل الخير والبركة والأمن والأمان فيه.

عن ابن عباس قال: لما أخرج الله تعالىٰ ماء زمزم لأم إسماعيل، فبينا هي علىٰ ذلك إذ مرَّ ركب من جرهم قافلين من الشام في الطريق السفلىٰ فرآى الركب الطير على الماء، فقال بعضهم: ما كان بهذا الوادي من ماء ولا أنيس، يقول ابن عباس: فأرسلوا رجلين لهم حتىٰ أتيا أمّ اسماعيل فكلّماها ثم رجعا إلى ركبهما، فأخبراهم بمكانها، قال: فرجع الركب كلّهم حتىٰ حيّوها فردت عليهم وقالوا: لمن هذا الماء؟ قالت أم اسماعيل: هو لي، قالوا لها: أتأذنين لنا أن ننزل معك عليه؟ قالت: نعم![٨٥]

ويضيف ابن عباس قائلاً: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: القىٰ ذلك أمّ اسماعيل وقد أحبت الأنس بهم، فنزلوا وبعثوا إلى أهاليهم، فقدموا إليهم وسكنوا تحت الدوح، واعترشوا عليها العرش فكانت معهم هي وابنها، حتىٰ ترعرع الغلام وأنفسوا فيه وأعجبهم، وتوفيت أم اسماعيل، فلما بلغ أنكحوه جارية منهم[٨٦].

وقد ذكر المفسرون والمؤرخون، أنّ اسماعيل عليه السلام طلّقَ زوجته الأولىٰ (تلك الجارية) بطلب من ابراهيم عليه السلام[٨٧]، وتزوج بأخرىٰ بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، فولدت له اثني عشر رجلاً. وقد ذُكرت أسماؤهم وأحوالهم في كتب الصحاح وأخبار مكة وغيرها من كتب الخاصة والعامة. وجاء ما يشابه ذلك من الأسماء في التوراة. والذي يهمنا من ولد اسماعيل عليه السلام «نابت» و«قيدار» كبار ولد

اسماعيل ومنهما نشر الله العرب، وبعد وفاة اسماعيل عليه السلام تولىٰ نابت إمارة البيت المعمور، وبعد أن توفي نابت بن اسماعيل عليه السلام وليَ أمرها ـ أمر الكعبة ـ جده لأمّه (مضاض بن عمرو الجرهمي) وضمَّ بني نابت وبني اسماعيل عليه السلام إليه فصاروا مع جدهم أبي أمهم ومع أخوالهم من جرهم.

وهكذا توارث آل اسماعيل (وهم في الحقيقة آل ابراهيم عليه السلام) الكعبة البيت الحرام. وهكذا كرّم الله تعالىٰ ابراهيم واسماعيل عليهما السلام.

جُرهم وولايتها الكعبة

بعد وفاة اسماعيل عليه السلام وابنه نابت نصّبت قبيلة جُرهم (الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي)[٨٨] ملكاً عليهم، وفي نفس الوقت ضعنت قبيلة قطورا (وهم من العماليق) من اليمن إلى مكّة فولّوا عليهم (السميدع)[٨٩] ملكاً، فلما نزلوا مكة رأوا بلداً طيباً وماءً وشجراً فأُعجبوا بها، فكان الحارث بن مضاض ومن معه قد نزلوا أعلى مكة وقعيقعان، ونزل السميدع ومن معه أسفل مكة وأجيادين، وكان (الحارث) يعشّر[٩٠] من دخل مكة من أعلاها، وكان السميدع يعشّر من يدخل مكة من أسفلها، لا يدخل واحد منهما علىٰ صاحبه في ملكه، ثم إنّ جرهماً وقطوراً بغىٰ بعضهم علىٰ بعض وتنافسوا الملك بها واقتتلوا بها حتىٰ نشبت الحرب بينهم على المُلك وولاة الأمر بمكة، وصارت ولاية البيت إلى العماليق، ثم كانت لجُرهم عليهم، وأقامت جُرهم بولاية البيت نحو ثلاثمائة سنة، وكان آخر ملوكهم الحارث ابن مضاض الأصغر بن عمرو بن الحارث بن مضاض الأكبر وزادوا في بناء البيت، ورفعته علىٰ ما كان عليه من بناء ابراهيم واسماعيل عليهما السلام[٩١].

وقال ابن اسحاق: ثم نشر الله تعالىٰ بني اسماعيل بمكة، وأخوالهم من جُرهم إذ ذاك الحكّام بمكة وولاة البيت، كانوا كذلك بعد نابت بن اسماعيل عليه السلام، فلما ضاقت عليهم مكة وانتشروا بها، انبسطوا في الأرض وابتغوا المعاش والتفسح في الأرض، فلا يأتون قوماً ولا ينزلون بلداً إلّا أظهرهم الله عزّوجل عليهم بدينهم فوطئوهم،

وغلبوهم عليها حتىٰ ملكوا البلاد ونفوا عنها العماليق، ومن كان ساكناً بلادهم التي كانوا اصطلحوا عليها من غيرهم، وجُرهم علىٰ ذلك بمكة ولاة البيت لا ينازعهم إياه بنو اسماعيل لخؤولتهم وقرابتهم وإعظام الحرم أن لا يكون به بغي أو قتال[٩٢].

أما المسعودي فيقول: «وكثر ولد إسماعيل وصاروا ذوي قوة ومَنَعَة فغلبوا علىٰ أخوالهم جُرهم وأخرجوهم من مكة، فلحقوا بجُهينة، فأتاهم في بعض الليالي السيل فذهب بهم، وكان الموضع يُعرف (بإضم) وقد ذكر ذلك أمية بن أبي الصّلت الثقفي في شعر له فقال:

وجُـرهم دفـنوا تُـهامة فـي الد هـر فسـالت بـجمعهم إضَـمُ[٩٣]

خُزاعة وولاية الكعبة

حكمت جُرهم فترة طويلة في مكة كما ذكرنا سابقاً مع ولايتها على الحرم والكعبة «ولما طالت ولايتهم استحلوا من الحرم أموراً عظاماً، ونالوا ما لم يكونوا ينالون، واستخفوا بحرمة الحرم، وأكلوا مال الكعبة الذي يُهدىٰ إليها سِراً وعلانية، وكلّما عدا سفيه منهم علىٰ منكر وجد من أشرافهم مَنْ يمنعه ويدفع عنه، وظلموا من دخلها من غير أهلها»[٩٤].

ويذكر المؤرخون والرواة أنّ جرهماً بعد أن صاروا أكثر سُكان مكة رجالاً وأموالاً وسلاحاً وأعزهم عزة، طغوا وتنازعوا أمرهم بينهم واختلفوا، وضعفوا بعد ذلك، فقام (مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض الجُرهمي) ناصحاً لهم[٩٥]. ولم ينفع النصح فيهم، فدخل عمرو بن عامر نازحاً من اليمن مع أهله وأمواله وكاهنة لهم تُدعىٰ (طريفة الكاهنة) مُطاعٌ أمرُها عندهم، فكانوا لا يطأون بلداً إلّا غلبوا عليه وقهروا أهله حتىٰ قاربوا مكة واقتتلوا مع جُرهم ثلاثة أيام فانتصروا وانهزمت جُرهم، فلم ينفلت منهم إلّا الشريد، وكان مضاض بن عمرو ابن الحارث قد اعتزل جرهماً ولم يعنِ في ذلك، فرحل هو وولده وأهل بيته حتىٰ

نزلوا قنونا وحلى أودية علىٰ ساحل البحر الأحمر.

وتشتت جُرهم، وفُنيت البقية الباقية بالسيف، وجاء دور خزاعة في ولاية الكعبة، فحازت أمر مكة وصاروا أهلها، وجاءهم بنو اسماعيل فسألوا السكنىٰ مع خزاعة فأذنوا لهم. فلما رأىٰ ذلك (مضاض بن عمرو بن الحارث) أرسل خزاعة يستأذنها في الدخول عليهم والنزول معهم بمكة في جوارهم ومتَّ إليهم برأيه وتوديعه قومه عن القتال وسوء السيرة في الحرم واعتزاله الحرب، فأبت خزاعة أن تقررهم ونفتهم عن الحرم كلّه ولم يتركوهم ينزلون معهم، فقال عمرو بن لحي وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر لقومه: من وجد منكم جرهمياً قد قارب الحرم فدمهُ هدر[٩٦].

وبذلك سيطرت خزاعة علىٰ مكة وأخرجت جُرهماً منها ونفتهم عن آخرهم الى اليمن، وحزنت جُرهم حزناً شديداً، وندموا علىٰ ما فعلوا في مكة ندماً ذريعاً، وبكوا علىٰ مكة وألفوا الأشعار فيها[٩٧].

هذا... وحازت خزاعة ولاية البيت الحرام والكعبة الشريفة، وحُكم مكة، ثلاثمائة عام، وقد تعرضت مكة إلى عدوان أرادوا تخريبها وهدمها، ودافعت خزاعة دفاعاً عظيماً، وقاتلت دونها قتالاً شديداً... وقيل: إن عمرو بن لحي الخزاعي كان يلي البيت وولده بعده خمسمائة سنة حتىٰ كان آخرهم حليل بن حبشة بن سلول بن كعب بن عمرو، الذي تزوج قصي بن كلاب ابنتهُ «حُبىٰ»[٩٨].

وقال المسعودي: كان أول من ولي البيت من خزاعة عمرو بن لُحي، واسم لحي حارثة بن عامر، فغيّر دين إبراهيم وبَدّله، وبعث العرب علىٰ عبادة التماثيل، حين خرج إلى الشام ورآىٰ قوماً يعبدون الأصنام، فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة، وقويت خزاعة، وعمَّ الناس ظلم عمرو بن لُحي[٩٩].

ولمّا أكثر عمرو بن لحي من نصب الأصنام حول الكعبة، وغلب على العرب عبادتها، وانمحت الحنيفية منهم إلّا لمعاً، قال في ذلك شحنة بن خلف الجرهمي:

يا عمرو، إنك قد أحـدثت آلهـةً ... شتىٰ بمكة حـول البـيت أنـصابا
وكــان للــبيت رَبٌّ واحـدٌ أبـداً ... فقد جعلتَ له فـي النـاس أربـابا
لتـــعرفَنّ بأنّ الله فـــي مَـهَل ... سيطفي دونكم للبيت حُجّابا[١٠٠]

ولاية قصي بن كلاب الكعبة

تذكر كتب التاريخ عن قصي عندما توفي والده كـلاب كـان طـفلاً رضـيعاً فتزوجت أمّه (فاطمة بنت عمرو) ربيعة بن حزام، فخرجت معه من مكة إلى بلاده أرض عذرة من أشراف الشام وحملت معها قصيّاً لصغر سنه، فولدت من ربـيعة «رزاح»[١٠١] ولما شب قصي حدث بينه وبين رجل مـن قـضاعة شيء، فـقال له القُضاعي: ألا تلحق بنسبك وقومك فإنك لست منا؟ فرجع قصي إلى أمـه وقـد وجد في نفسه مما قال له القضاعي، فسألها عما قال له، فقالت: والله أنت يا بني خيرٌ منه وأكرم، أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وقومك عند البيت الحرام وما حوله. فأجمع قصي للـخروج إلىٰ قومه واللحاق بهم وكره الغُربة في أرض قُضاعة[١٠٢].

دخل قصي مكة في شهر الحج أحد الأشهر الحُرم، وكان رجلاً جليداً حازماً بارعاً، فلما أنهىٰ حجهُ دخل علىٰ حليل الخُزاعي خاطباً ابنتهُ «حُبىٰ»، فلما عرف حليل نسب قُصي رغب فيه وزوجه، وحليل يومئذ وليُ أمر الكعبة ومكة. ولمـا حضرت حليل الوفاة نظر إلى قصي والىٰ ما انتشر له من الولد من ابنته، فرآىٰ أن يجعل إمارة الكعبة وحكمها في ولد ابنته فدعا قصياً، فجعل له ولاية البيت وسلّم إليه مفتاح الكعبة[١٠٣].

وقال حليل لقصي: إنها لا تقوم بفتح الباب وغلقه[١٠٤]، فجعل ولاية البيت إليها وفتح الباب وغلقه إلى رجل من خزاعة يُعرف بأبي غبشان الخزاعي، فباعه أبو غبشان إلى قصي ببعير وزق خمر، فأرسلت العرب ذلك مثلاً، فقالت: «أخسرُ من صفقة أبي غبشان» وفي بيعه لولاية البيت ببعير وزق من الخـمر، ونقله ولاية

البيت من قومه من خُزاعة إلى قُصي بن كلاب، يقول الشاعر:

أبــو غـبشان أظـلم مـن قـصيٍّ وأظــلم مـن بـني فِـهْرٍ خُـزاعـة
فــلا تَــلحوا قــصياً فـي شِـراهُ ولوموا شيخكم إذ كان باعهْ[١٠٥]

ولما مات حليل الخزاعي، أبت خُزاعة أن يكون قصي ولي أمر الكعبة ومكة المكرمة، فأخذت المفتاح منه، فاستنصر قصي قريشاً وبـني كـنانة فأجـابوه إلى النصر، وأرسل إلى أخيه لأمه «رزاح» فخرج رزاح واخوته لأبيه في حاج العرب مجتمعين لنصر قصي والقيام معه، فلما كان آخر أيـام مـنىٰ أرسـلت قـضاعة إلى خُزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصي ما جعل له حليل، وعظموا عليهم القتال في الحرم، وحذروهم الظلم والبغي بمكة، وذكروهم ما كانت فيه جُرهم، وما صارت إليه حين ظلموا وبغلوا فيها، فأبت خزاعة ذلك واقتتلوا قتالاً شديداً. آلَ الأمـر بالنهاية أن يحكموا لقصي بحجابة الكعبة وولاية أمر مكة وأسلمت خزاعة لقصي، وتملك علىٰ قومه فملكوه، وكان قصي أول رجل من بني كنانة أصابَ ملكاً وأطاع له به قومه، فكانت له الحجابة، والرفادة، والسقاية، والندوة، واللواء، والقيادة. وجمع قريشاً بمكة وسُمي بذلك مجمعاً أو قرشياً[١٠٦]. وقصي الجد الخامس للـنبي محمدﷺ وهو من بني اسماعيل النبي عليه السلام بن إبراهيم الخليل عليه السلام[١٠٧].

وقد كانت ولاية البيت في خُزاعة ثلاثمـائة سنة، واستقام أمر قصي، وعشّر من دخل مكة من غير قريش، وبنى الكعبة، ورتب قريشاً علىٰ منازلها في النسب بمكة، وبيّن الأبطحيَّ من قريش، وهم الأباطح، وجعل الظاهري ظاهرياً[١٠٨].

ظهور قريش واستيلاؤها على الكعبة

ظهرت قريش في عهد قصي كما ذكرنا، وكان السبب في تسميتهم لأن تفسير ذلك الأمن، وتقرّشت، والتقرش: الجمع، ومنه قول ابن حِلِّزة اليشكري:

إخــوة قَــرَّشوا الذُنــوب عـلينا في حديث من دَهرِنا وقديم[١٠٩]

وكانت قريش قبائل متفرقة جمعها قصي بن كلاب، فسميت قريشاً، فالتجمع في بعض كلاب العرب يعني التقرش، ويُقال: كان يُقال لقصي القرشي ولم يسم قرشي قبله، ويُقال أيضاً: إنّ النضر بن كنانة كان يُسمى القرشي وقد قيل: إنما سميت قريش قريشاً لأنها كانت تجاراً تكتسب وتتجر وتحترش فشبهت بحوت في البحر تسمىٰ «قريشاً»[١١٠].

وظهرت قريش علىٰ ساحة مكة، فلما حاز قصي بن كلاب شرف مكة، وأنشأ دار الندوة، كانت قريش تقضي فيها أمورها، ولم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصي إلّا ابن أربعين للمشهورة، وكان يدخلها ولد قصي كلهم، وحلفاؤهم، فلما كبر قصي ولّىٰ ولده عبدالدار وعبدمناف أمور الكعبة، فأعطىٰ عبدالدار السدانة وهي الحجابة، ودار الندوة، واللواء، وأعطىٰ عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة.

وبعد وفاة عبدالدار جعل الحجابة بعده إلى ابنه عثمان بن عبدالدار، وجعل دار الندوة إلى ولده عبدمناف بن عبدالدار، ثم ولي أمورها عامر بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار وجاء بعده عثمان، ثم وليها عبدالعزى بن عثمان بن عبدالدار، ثم وليها طلحة بن عبدالله بن عبدالعزىٰ، ثم وليها ولده حتىٰ كان فتح مكة، فقبضها رسول الله محمدﷺ بن عبدالله بن عبدالمطلب[١١١] وحطّم أصنام الكعبة وولي الأمور كلّها؛ ليعيد الحج الإبراهيمي الأصيل فيها بعد أن حُرّف الحج وتغيرت معالمه.

عبادة الأصنام في الكعبة الشريفة

اتفق المؤرخون والرواة، أنّ أول من نصب الأصنام في الكعبة «عمرو بن لحي» وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر، وهو خُزاعي، وقد نقل فكرة الوثنية من بلاد الشام التي زارها، ورأىٰ وثنية أهلها، فتأثر بها وغيّبَ معالم التوحيد ودنّس البيت الحرام. وجاء بالصنم الكبير «هُبل» من هيت[١١٢]، من

أرض الجزيرة فنصبه في بطن الكعبة، فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالأزلام، وهو أول من غيّر الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل وكان أمره «عمرو» بمكة في العرب مطاعاً لا يُعصىٰ له أمر، وقد ذكرنا سابقاً أنه زعيم خزاعة، وانتصرت بقيادته علىٰ قبيلة جُرهم، وبلغ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغ عربي قبله ولا بعده في الجاهلية.

ذكر الأزرقي في أخبار مكة عن هذا الرجل وتأكيده على الأصنام قائلاً: «إنّ جرهماً لما طغت في الحرم، دخل رجل منهم بامرأة منهم الكعبة ففجر بها، ويقال إنما قبّلها فيها فمسخا حجرين اسم الرجل أساف بن بغاء، واسم المرأة نائلة بنت ذئب، فأخرجا من الكعبة، فنصب أحدهما على الصفا والآخر على المروة، وإنما نصبا هنالك ليعتبر بهما الناس، ويزدجروا عن مثل ما ارتكبا... فلما كان عمرو بن لحي (قد ولي الكعبة) أمر الناس بعبادتهما والتمسح بهما»[١١٣][١١٤].

وظلَّ الحجاج من أهل مكة ومن غيرهم يعبدون هذين الصنمين المذكورين، ويتمسكون ويتمسحون بهما ويقدمون لهما النذورات والذبائح وينحرون لهما حتىٰ جاء قصي بن كلاب، فصارت إليه الحجابة وأمر مكة، فنقلهما من الصفا والمروة، وجعل أحدهما بلصق الكعبة، وجعل الآخر في موضع زمزم، وكان أهل الجاهلية يمرون بأساف ونائلة ويتمسحون بهما، وكانوا إذا طافوا بالبيت يبدأون بأساف فيستلمه الحاج، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها، فكانا كذلك حتىٰ كان يوم الفتح، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله، فكسّرهما، وحين دخل الرسول صلى الله عليه وآله والمسلمون فاتحين مكة المكرمة، كان عدد الأصنام فيها وقد كسرها جميعاً رسول الله صلى الله عليه وآله «ثلاثمائة وستين صنماً»[١١٥].

وفي ذلك يقول فضالة بن عمير بن الملوح الليثي في ذكر يوم الفتح:

أومـــا رأيت مـــحمداً وجـــنوده بـــالفتح يـــوم تكســـر الأصـنام؟!

لرأيت نـــور الله أصـــبح بـينا والشرك يغشىٰ وجهه الاظلام[١١٦]

حادثتا (تبع) و(الفيل) ومنزلة الكعبة

للكعبة الشريفة منزلة عظيمة عند الله تعالىٰ، فقد حفّها برعايته، وخصّها بكرامات سجّلها التاريخ، منها صيانتها من الشر والخراب، فقد تشتت قوم جُرهم لظلمهم فيها وطغيانهم، وخزاعة هي الأخرىٰ، وكذلك قريش وكلّ من يحاول الاعتداء عليها أو الاستخفاف بها، فقد قضت حُرمة الكعبة علىٰ قوم تبّع وأصحاب الفيل، أما تُبّع فهو اسم لأحد ملوك اليمن، والتبابعة لقب ملوك اليمن، وكان للتبابعة دولة وصولة في اليمن وغيره، وكانوا أحسن حالاً وأكثر مالاً من قريش، ولما عتو عن أمر ربهم أخذهم بالهلاك والدمار.

قال تعالىٰ: ﴿**أهم خير أم قوم تبّع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين**﴾[١١٧].

والتبابعة الذين أرادوا هدم الكعبة وتخريبها ثلاثة، وقد كان قبل ذلك منهم من يسير في البلاد، فإذا دخل مكة عظم الحرم والبيت.

وتُبّع الثالثة التي صممت علىٰ هدم البيت الحرام كانت بالدّفِ من جمدان بين أيج وعسفان، دفت بهم دوابهم، وأظلمت الأرض عليهم، فدعا ـ تُبع ملكهم ـ أحباراً كانوا معه من أهل الكتاب، فسألهم فقالوا: هل هممتَ لهذا البيت بشيء؟ قالَ: أردتُ أن أهدمه. قالوا: فانوِ له خيراً أن تكسوه، وتنحر عنده، ففعل، فانجلت عنهم الظلمة (وإنما سُمي الدف من أجل ذلك)، فسار وتكررت الحالة ثلاث مرات، فقال الأحبار له: والله ما أرادت هذيل[١١٨] في دفعك بهذا إلّا هلاكك وهلاك قومك، إنّ هذا بيت الله الحرام ولم يرده أحد قط بسوء إلّا هلك... فضرب تُبّع اعناق الهذليين وصلبهم، فرآىٰ في المنام أنه يكسي الكعبة، فكساها كسوة كاملة، كساها العصب، وجعل لها باباً يُغلق بضُبة فارسية. قال ابن جريج: كان تُبّع أول من كسا البيت كسوة كاملة[١١٩].

وقد جاء في الحديث عن الرسول ﷺ قال: «لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم»[١٢٠].

وروي عن الصادق عليه السلام قال: «إن تُبعاً قال للأوس والخزرج: كونوا هاهنا حتىٰ يخرج هذا النبيّ، أما أنا فلو أدركته لخدمته وخرجتُ معه»[١٢١].

هذا ما كان لقوم تُبّع، أما قوم إبرهة الأشرم أو الحبشي (أصحاب الفيل) فقد ذكرهم القرآن الكريم وكيفية هلاكهم عن آخرهم نتيجة ما كانوا يكيدون للكعبة وتدميرها، وملخص ما جاء من أمرهم في تفاسير القرآن الكريم: أنّ الأحباش بعد أن انتصروا علىٰ ملك اليمن، وتسلط إبرهة الأشرم على اليمن، بنى القليس بناءً من الذهب والفضة محكماً يضاهي الكعبة، ودعا الناس للحج إليه بدل الكعبة، وانتشر خبره في العرب، فدعا رجل من بني مالك بن كنانة رجلين من العرب ليذهبا ويحدثا فيه، فدخل إبرهة البيت فرآىٰ أثرهما فيه، فغضب وأقسم علىٰ هدم الكعبة، وتخريبها، فسار مع جيشه يتقدمهم فيل أو أكثر حتىٰ وصلوا إلى مكان بالقرب من مكة يُقال له: «المغمّس» فنزلوا فيه، وأرسل إبرهة إلى قريش مَن يخبرهم بأنه لم يأت لحربهم، وإنما لهدم البيت والحرم، فإن لم يعرضوا له بحرب فلا حاجة له بدمائهم. وما أن همَّ إبرهة بهدم البيت أرسل الله عليه وعلىٰ جيشه أسراباً من الطير ترميهم بحصىٰ صغيرة لا تصيب أحداً منهم إلّا هلك، ومات وتناثر لحمه، فذعر الجيش وصاحبه، وفرّوا هاربين ومات إبرهة بعد أن وصل صنعاء، وسقط لحمه قطعة قطعة إلى أن انتهىٰ[١٢٢].

قال تعالىٰ: ﴿**أَلم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * أَلم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصفٍ مأكول**﴾[١٢٣].

يقول د. طه حسين في كتابه «مرآة الإسلام»: «وفي هذه الموقعة أظهر عبدالمطلب من الصبر والجلد، ومن الشجاعة والثقة ما لم يظهره غيره من أشراف

قريش، ذلك أنه قد أشار علىٰ قريش أن تخلي مكة، فسمع له قومه، وأقام هو بمكة لم يعتزلها، وإنما أقام عند الكعبة يدعو الله ويستنصره. ويقول الرواة: إنّ الجيش أغار علىٰ إبل قريش فاحتازها، وجاء عبدالمطلب إلى إبرهة، ولما دخل عليه لم يكلمه إلّا في إبلٍ له، فصغر في نفس إبرهة وقال له: كنتُ أظن أنك تكلمني في شأن مكة، وشأن هذا البيت الذي تعظمونه. قال عبدالمطّلب: إني أكلمك في مالي الذي أملكهُ، أما البيت فإنّ له ربّاً يحميه إن شاء. فأرسل الله علىٰ إبرهة وجيشه من تلك الطير، التي ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كصعفٍ مأكول، وعادت قريش مكة، فازداد إكبارهم لعبدالمطلب وشجاعته وثقته وثباته»[١٢٤].

وبذلك حمى الله تعالىٰ بيته من إبرهة ومن كلّ من نوىٰ لها بسوء. وهكذا صمدت الكعبة الشريفة في وجه أكبر الصدمات التاريخية حيث فشلوا في خرابها والقضاء عليها.

بعثة محمدﷺ وفريضة الحج

ولد محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي بن حكيم (كلاب) بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الليلس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد، وينتهي نسبهُ الشريف إلى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام[١٢٥]، ولد في مكة في اشرف بقاع العالم ولم يلد نبيّ قبله ولا بعده ـ حسب اطلاعنا ـ في هذه البقعة المباركة الشريفة إلّا هو، وقد شرّفه الله تعالىٰ وكرّمه وجعله سيد البشر وسيد الأنبياء وخاتمهم وجعل تابعيه «خير أمة اخرجت للناس، وبعثه في عامه الأربعين في محل ولادته نبياً عالمياً للناس كافة، قال تعالىٰ:

﴿وما أرسلناك إلّا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[١٢٦].

بُعث النبيﷺ في قوم يعبدون الأصنام في البيت الحرام، وكانت أصنامهم

أساس الحياة خصوصاً عند قريش زعيمة العرب في مكة آنذاك، إذ كانت القرابين تقدم لهذه الأصنام، وفي ذلك كانت مصلحة اقتصادية وأدبية لقريش التي كانت تحمي الدار، فالقضاء على «الدين الوثني» يعني القضاء علىٰ منافع قريش وزعامتها.

لذلك كانت مهمة رسول اللهﷺ في نشر الدين الجديد مهمة شاقة جدّاً، كمهمة أبيه ابراهيم عليه السلام، فقد ندّد بالوثنية والمعتقدات التي لا تتلاقىٰ مع وحدانية الله، وأظهر فساد نظمهم الاجتماعية، مما أثار غضب قريش عليه ومقاومتها إياه مقاومة شديدة حتىٰ قالﷺ: «ما أوذي نبيّ مثل ما أوذيت».

ومضىٰ محمدﷺ يواصل الدعوة بثقة، ومضت الصفوة من الدعاة تواصل السير معه وتترسم خطاه المباركة، وقد أعيىٰ قريشاً إصرارُ محمدﷺ وأصحابه علىٰ تحدّيها فراحت تجدّ في تحطيم دعوته وتعذيب المؤمنين به، مما اضطره إلى الهجرة بعد أن هاجر مئتا مسلم بإذنٍ منهﷺ قبله بشهرين، قسم منهم هاجر إلى الحبشة، وقسمٌ آخر إلى المدينة. ثم استقر الجميع في المدينة المسماة «يثرب»[١٢٧] قبل هجرة الرسولﷺ وبهجرته إليها تشرفت باسم «مدينة الرسول».

وحين وصول النبيّ الأكرم إليها شرع ببناء الدولة الإسلامية حيث توفرت له عناصرها ـ الأرض، الأمة، السلطة السياسية المتمثلة بقيادته الحكيمة ـ، فأسس المسجد؛ ليكون منطلقاً للقيادة ومركزاً لبناء الدولة إلى جانب مهام المسجد العبادية والفكرية، وقد تمثل بناء الدولة في الخطة الحكيمة التي وضعها رسول الله في بناء الجبهة الداخلية بمؤاخاة المهاجرين والأنصار، والمساواة في الحقوق والواجبات بمختلف قبائلهم، وعقد معاهدة مع اليهود بعدم الاعتداء، ثم تكوين الجيش المسلم والقوة المسلحة والجهاد في سبيل الله، وبناء جهاز إداري متين، وعلاقات خارجية ببعث رسائل إلى بعض الملوك والحكام وغيرها من الأمور.

والذي يهمنا هنا أنّ الرسولﷺ أصبح قوة لا تستطيع قريش مقابلتها، فجهّز

جيشاً من عشرة آلاف مقاتل وسار سرّاً ليباغت قريشاً، وليصادر إمكانية الدفاع من يدها، ولئلا يقع قتال في مكة الأمن والسلام.

وتحرك جيش محمدﷺ صوب مكة في العاشر من رمضان سنة ثمان للهجرة، واستخدم حرباً نفسية بإشعاله النيران في الصحراء علىٰ مقربة من مكة؛ ليُشعر قريشاً بقوة الجيش الإسلامي، ويثير الرعب في نفوس طغاتها، ويحملهم على الاستسلام والخضوع من غير قتال(١٢٨).

وهكذا دخل رسول اللهﷺ ـ الذي خرج من مكة مستخفياً يطارده كفارها ـ دخل فاتحاً محطّماً أعظم حصون الشرك والجاهلية، ولم يستطع الذين حاربوه طوال واحد وعشرين عاماً أن يصمدوا أمام قوة الإيمان الزاحفة، فاستسلموا، وأتوا إليه مذعنين، ودفعوا إليه الجزية التي فرضها عليهم صاغرين منكسرين.

وبهذا ثبتت الدولة والدعوة وأركانها في الجزيرة وتحقق الفتح المبين، واستلم الرسولﷺ ولاية الكعبة وحطّم أصنامها، وصار يُطافُ بها كما طاف ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام من قبل حوالى خمسة آلاف من السنين، واستُجيبت دعوة ابراهيم عليه السلام: ﴿**ربِّ وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾(١٢٩).

وأذّن محمدﷺ للناس بالحج، كما أذن جده ابراهيم ودعاهم إليه وعادت مناسك الحج الإبراهيمي كما خطّها جبرئيل لإبراهيم عليه السلام بإذن السماء...

الكعبة أحب بقاع الأرض إلى الله

لقد ورد في الروايات الشريفة عن خاتم الأنبياء والرسل محمدﷺ وعن آله الأطهار: أنّ أحبّ بقاع الأرض إلى الله تعالىٰ هي الكعبة الشريفة. إضافةً إلى ما أشارت إليه الآيات القرآنية كما ذكرنا سابقاً...

قال رسول اللهﷺ حين هجرته إلى يثرب ملتفتاً وراءه ناظراً إلى الكعبة الشريفة مناجياً إياها: «والله إنك لأحبّ البقاع إلى الله، ولولا أنّي أُخرجتُ منك

ما خرجت»[١٣٠].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أحبّ الأرض إلى الله عزّوجلّ مكة، ما تربة أحبُّ إلى الله عزّوجلّ من تربتها، ولا حجر أحبُّ إلى الله عزّوجل من حجرها، ولا شجر أحبُّ إلى الله عزّوجل من شجرها، ولا جبال أحبُّ إلى الله عزّوجل من جبالها، ولا ماء أحبُّ إلى الله عزّوجل من مائها»[١٣١].

وقال عليه السلام أيضاً: «ما خلق الله تبارك وتعالىٰ بقعة في الأرض أحبّ إليه منها ـ وأومأ بيده نحو الكعبة ـ ولا أكرم على الله عزّوجلّ منها، لها حرّم الله الأشهر الحُرم في كتابه يوم خلق السماوات والأرض»[١٣٢].

وهناك روايات أخرىٰ نستغني عن ذكرها ونكتفي بما ذكرنا، ويكفي أن نستنتج حب الله تعالى للكعبة الشريفة مايعطي لزائرها وللحاج إليها... فقدجاء في الصحيح:

«الحاج ثلاث أصناف: صنفٌ يُعتقُ من النار، وصنفٌ يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه، وصنفٌ يُحفظ في أهله وماله وهو أدنىٰ ما يرجع به الحاج»[١٣٣].

الحج بين ابراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله

ومما تقدم يتضح أنّ هناك قاسماً مشتركاً مقدساً بين حج أبي الأنبياء الخليل ابراهيم عليه السلام وحج خاتم الأنبياء الحبيب محمد صلى الله عليه وآله، قاسماً إلهياً فطرياً صحيحاً... بعيداً كلّ البعد عن الإضافات البشرية والزوائد واللواحق الخارجة عن الحج الحقيقي...

ولكن للزمان معاوله وأنيابه، وللإنسان أهواؤه ورغباته الدنيوية... وقد لعبت في الأصول والمقدسات فحرفتها وأخرجتها في أحيان كثيرة عن خطّها الطبيعي الذي وضعه الله تعالىٰ...

قد شَوَّه أو حَرفَ هذا الخط الإلهي (الحج) كثيرٌ من ولاة الكعبة الشريفة وغيرهم ممن جاؤوا[١٣٤] بعد النبي ابراهيم عليه السلام فجعلوه ـ الحج ـ مجرد طقوس

خاوية وافعال مادية جسدية محدّدة، وأخرجوه من معناه الروحي والقدسي الذي أراده الله تعالىٰ...

فلم تعد الكعبة ذلك الصرح الإلهي العظيم الذي أقامه النبي ابراهيم الخليل عليه السلام ووضع قواعده، والهدف الإلهي الذي استهدفه من تأسيسها...

وانما أصبحت مركزاً ومقراً للأفكار والأوضاع التي حملها العرب في العصر الجاهلي بما يحملون من روح وثنية من خلال إدخالهم الأصنام فيها وعبادتهم لها، والتقرب من خلالها إلى الله زلفا، أو مركزاً للأعاجم من فرس وغيرهم ممن لم يؤمنوا إيماناً صحيحاً، وإنما جاؤوا لإحياء ذكريات أو لأغراض أخرىٰ غير دينية ولا إلهية من قبيل التجارة أو الترويح عن النفس، أو لقضاء الحاجة من خلال تقديم النذور والقرابين مما ورثوه من عادات وعقائد...

وهكذا ابتعد الحج عن أهدافه السامية الأولى الروحية والمعنوية، وصار مجرّد شكل ومظهر مادي لا مضمون فيه ولا روح...

وبُعث النور الأعظم، النبي محمد صلى الله عليه وآله وغيّر الدنيا، والمجتمع.. وإذا بالكعبة والحج الأصيل نفسه يعيد مجده السالف التليد الذي أرساه النبي ابراهيم الخليل عليه السلام وأبناؤه وأحفاده المخلصون...

جاء محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله ليضع الحج في موقعه المناسب، الحج الأبدي، ما دام الإنسان حيّاً يجري علىٰ سطح الأرض...

جاء الحج في لمساته الأخيرة ركناً مرتبطاً كامل الارتباط بالخالق البارئ عزّوجلّ، وممتداً امتداداً طويلاً إلى كلّ إنسان يجري في المعمورة؛ ليصوغ شخصية اجتماعية تستمد من الحج (ذلك الاجتماع الكبير) شخصية سوية كسائر الناس، تنظر إلى الآخرين نظرتها إلى نفسها... باعتباره عبداً من ملايين العبيد لله عزّوجل...

وهكذا عاد الحج الإبراهيمي علىٰ يد رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن ابتعد عن

ابراهيم عليه السلام رويداً رويدا وخلف عن سلف كما قال تعالىٰ: ﴿**فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً**﴾(١٣٥).

الهوامش:

(١) اليبوسيون: أقدم سكان أورشليم يرجع الخبراء تاريخ وجودهم في المدينة إلى ما قبل خمسة آلاف سنة حين نزحوا من جزيرة العرب. وكوّنوا في موطنهم الجديد حضارة ذات حكومة وصناعة وتجارة وديانة، المصدر: العرب واليهود في التاريخ: ٣٩١.

(٢) العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة: ٣٨٦.

(٣) معجم البلدان، ياقوت الحموي ١: ١١٢.

(٤) البقرة: ١٤٤.

(٥) البقرة: ١٢٥. الحج: ٢٦.

(٦) ابراهيم: ٣٧.

(٧) كوثا: مدينة في العراق بالقرب من مدينة بابل الحالية، وكانت مركزاً مهماً للساميين.

(٨) نقله الطبري، الثعلبي، الكسائي، ابن ميمون، الزمخشري، البيضاوي، ابن الأثير مع اختلاف بسيط في التعابير والألفاظ.

(٩) الأنبياء: ٥١ ـ ٥٦.

(١٠) الأنبياء: ٥٧ ـ ٦٠.

(١١) الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٥.

(١٢) الأنبياء: ٦٨ ـ ٧١.

(١٣) انظر العرب واليهود في التاريخ: ٣٨٥ ـ ٣٨٧.

(١٤) العهد القديم، التوراة، سفر التكوين.

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) نقلت المصادر التاريخية وكذلك التوراة أن الذي اشترىٰ يوسف عليه السلام من اخوته كان هذا الجندي، راجع التوراة، العهد القديم، سفر التكوين.

(١٧) راجع القرآن الكريم الآيات الشريفة من سورة يوسف، والتوراة، العهد القديم، سفر التكوين.

(١٨) يعقوب: هو اسرائيل وتعني بالعربية (عبدالله) وسمّيَ ابناؤه باسمه (بنو اسرائيل).

(١٩) راجع، التوراة، العهد القديم، سفر التكوين.

(٢٠) فرعون موسىٰ، د. سيد كريم، الهلال، العدد ٥: ٧٥.

(٢١) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح، الفقرة.

(٢٢) المصدر نفسه، الاصحاح، الفقرة.

(٢٣) وهذا هو فرعون موسىٰ! نجيب فرج، اكتوبر، مجلة عام ١٩٧٦: ٢٦، وفرعون موسىٰ، د. سيد كريم، العدد ٥: ٧٣ وغيرها.

(٢٤) كان الفرعون قد أخبرته السحرة والكهنة ان ذكراً من بني اسرائيل يقضي علىٰ عرشه فجعل يقتل الذكور من مواليدهم، لكن موسىٰ عليه السلام نجىٰ، بايحاء الله تعالىٰ لأم موسىٰ فقال: ﴿**إذ أوحينا إلى أمك ما يوحىٰ * أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدوٌ لي وعدوٌ له**﴾ سورة طه ٢٨ ـ ٢٩.

(٢٥) القصص: ١٤.

(٢٦) القرآن الكريم، الآيات ٤٢ ـ ٤٧ من سورة طه و ١٨ ـ ٢٢ من سورة الشعراء.

(٢٧) المائدة: ٢٠ ـ ٢١.

(٢٨) المائدة: ٢٤.

(٢٩) المائدة: ٢٣ ـ ٢٦.

(٣٠) انظر: قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار: ٢٩٨.

(٣١) المصدر نفسه.

(٣٢) البقرة: ٤٩.

(٣٣) انظر الآيات الكريمة ٥٨ ـ ٥٩ من سورة البقرة.

(٣٤) تابوت العهد: صندوق من خشب حفظ فيه موسىٰ ألواح الشريعة التي أُنزلت عليه في جبل سيناء، استولى عليه الفلسطينيون إثر انتصارهم في معركة افيق، ووضعوه في قرية «يعاريم». وقام داود من ثَمّ بنقله في موكب رسمي إلى أورشليم حيث بنىٰ له سليمان هيكلاً. وحفظه في قدس الأقدس. وزال تابوت العهد أثناء حريق الهيكل عام (٥٨٧ أو ٥٨٦ق. م) علىٰ يد نبوخذ نصر، انظر معجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي: ٢٦٤.

(٣٥) العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة: ٣٩٨.

(٣٦) و(٣٧) سورة ص: ٣٥ ـ ٤٠.

(٣٨) هيكل سليمان: بناء ضخم ومحل عبادة، بلغ ارتفاعه (١٨٠) قدماً حين بناه سليمان عليه السلام، مرصع بالذهب، وكان الذهب يغشي أجزاء كثيرة من الهيكل، وجيء بمعظم مواد بنائه من فينيقية، وكان يقوم بمعظم الأعمال الفنية صنّاع من صيدا وصور... واستمر بناؤه والعمل في تشييده سبع سنين، كان فيه (١٠٠) حوض من الذهب، وكانت الحجارة الكريمة ترصع أجزاء متفرقة منه، كما كان ملكان مغطيان بصفائح الذهب يحرسان تابوت العهد، وهذا الصرح الضخم لم يبق منه حجر واحد، بل إن موضعه نفسه لا يعرفه أحد علىٰ وجه التحقيق، انظر قصة الحضارة مج ١، ٢: ٣٣٦ فما بعد...

(٣٩) آل عمران: ٣٧.

(٤٠) آل عمران: ٣٧.

(٤١) آل عمران: ٣٩.

(٤٢) مريم: ٧.

(٤٣) مريم: ٩.

(٤٤) مريم: ١٢.

(٤٥) مريم: ١٣.

(٤٦) قصص الأنبياء /عبدالوهاب النجار: ٣٦٨. بيروت ـ لبنان.

(٤٧) المصدر السابق: ٣٦٨ ـ ٣٦٩. وكذلك في كتاب مع الأنبياء في قصّة يحيىٰ.

(٤٨) سورة مريم: ٢٣ ـ ٢٦.

(٤٩) آل عمران: ٥٩.

(٥٠) مريم: ٢٦.

(٥١) مريم: ٢٨.

(٥٢) مريم: ٣٠ ـ ٣١.

(٥٣) بموجب روايات الإنجيل انه بُعث نبياً بعمر الثلاثين.

(٥٤) الحديد: ٢٧.

(٥٥) قصص الأنبياء، النجار: ٣٩٩.

(٥٦) معجم الحضارات، هنري س. عبودي: ٢٥٣.

(٥٧) المسجد الأقصىٰ: مكان للعبادة ولفظة مسجد مأخوذة من الفعل سَجَدَ، فالمسجد موضع السجود، وحين أُسري بالرسول الأكرم، لم يكن في ذلك المكان بناء معروف بالمسجد الأقصىٰ، وانما سمي في الآية الكريمة بـ(المسجد الأقصىٰ) لأنه مكان يُسجد فيه في العبادة.

(٥٨) الاسراء: ١.

(٥٩) نقله القمي في تفسيره للآية الأولىٰ من سورة الاسراء، والطباطبائي في الميزان، ومحمد جواد مغنية في الكاشف، وسيد قطب في تفسيره في ظِلال القرآن، ونقله كُتّاب التاريخ الإسلامي باتفاق السُنة والشيعة، فراجع.

(٦٠) المصدر السابق.

(٦١) الصخرة المقدسة: صخرة ذات تاريخ قديم جدّاً قدسها أهل أورشليم وتصوروا أنها نزلت من السماء كالحجر الأسود في الكعبة.

(٦٢) جِدار البراق: هو الحائط الذي ربط فيه رسول الله محمدﷺ البُراق (الدابة) في ليلة الاسراء فسمي (بجدار البُراق).

(٦٣) الأعراف: ١٢٨.
(٦٤) أخبار مكة، الأزرقي ١: ٧٥.
(٦٥) أي في الأرض.
(٦٦) أخبار مكة، الأزرقي ١: ٤٦ـ٤٧، منشورات الشريف الرضي.
(٦٧) أسواق عُكاظ: أسواق تجارية مهمة، تدر بالأرباح المالية الهائلة خصوصاً في موسم الحج قبل الاسلام وبعده.
(٦٨) قصة الحضارة، وِل ديورانت مج ١، ١: ١٨.
(٦٩) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢ (القاصعة): ٢٩٣ منشورات دار الهجرة إيران. قم
(٧٠) الخطبة نفسها.
(٧١) قصة الحضارة، وِل ديورانت مج٧، ١: ١٨.
(٧٢) الكافي، الكليني ١: ١٨٩.
(٧٣) أخبار مكة، الأزرقي ١: ٤٠.
(٧٤) أخبار مكة، الأزرقي ١: ٣٦ـ٣٧.
(٧٥) القصص: ٨٨.
(٧٦) الرحمٰن: ٢٧.
(٧٧) ليس من اختصاص القرآن الكريم ذكر التفاصيل في طرح التاريخ وغيره، وانما يُشيرُ إليها بما ينسجم والعبرة والبيان، والتفاصيل تؤخذ من الأحاديث الشريفة والأخبار والروايات.
(٧٨) أخبار مكة، الأزرقي ١: ٣٧.
(٧٩) المصدر السابق: ٥٠ ـ ٥١.
(٨٠) أخبار مكة، الأزرقي ١: ٥٢ ـ ٥٣.
(٨١) إبراهيم: ٣٧.
(٨٢) أخبار مكة، الأزرقي ١: ٥٤.
(٨٣) المصدر السابق: ٥٦.
(٨٤) الأنبياء: ٣٧.
(٨٥) أخبار مكة، الأزرقي ١: ٥٧، وصحيح البخاري، عن ابن عباس عن النبيﷺ.
(٨٦) المصدر نفسه.
(٨٧) انظر، الأزرقي، أخبار مكة، ج ١، وكتب الصحاح، وتفاسير القرآن الكريم، والتوراة، سفر التكون (وفي التوراة جاءت قصة اسماعيل وهاجر مع زيادات ونقصان كثير وكذب وتحريف أشهر من نارٍ علىٰ علم).
(٨٨) قال الأزرقي (ونصبت قبيلة جُرهم مضاض بن عمرو) في أخبار مكة، أما المسعودي فقد ثبتَ عنده أنه (الحارث بن مضاض) في مروج الذهب ٢: ٥٤.

(٨٩) السميدع: هو ملك العماليق، وهو ابن هوبر بن لاوي بن قيطور بن كركر بن حيدلا، مروج الذهب، المصدر السابق.

(٩٠) التعشير: هو ضريبة تعادل عُشر قيمة البضاعة يدفعها المار من الناس والتّجار لسيد الأرض، مروج الذهب، المصدر السابق.

(٩١) انظر أخبار مكة، للأزرقي ١: ٩٠ـ٩٣ منشورات الشريف الرضي، ومروج الذهب ٢: ٥٤.

(٩٢) انظر أخبار مكة، ١: ٨٠ـ٩٠.

(٩٣) مروج الذهب ٢: ٥٥.

(٩٤) أخبار مكة ١: ٩٠.

(٩٥) يذكر الأزرقي خطبتهُ لهم في كتابه أخبار مكة ١: ٩٠ـ١٠٣.

(٩٦) المصدر نفسه.

(٩٧) أخبار مكة ١: ١٠٥.

(٩٨) المصدر نفسه.

(٩٩) مروج الذهب، المسعودي ٢: ٦١.

(١٠٠) المصدر السابق.

(١٠١) انظر أخبار مكة، الأزرقي ١: ١٠٤.

(١٠٢) المصدر نفسه.

(١٠٣) المصدر السابق ١: ١٠٧.

(١٠٤) أي «حُبىٰ» لأن فتح الباب وغلقه تحتاج إلى قوة رجل أما الولاية فلها بالوراثة.

(١٠٥) مروج الذهب، المسعودي ٢: ٦٣.

(١٠٦) أخبار مكة ١: ١٠٧.

(١٠٧) معجم الحضارات السامية: ٦٨٨.

(١٠٨) مروج الذهب: ص٦٣.

(١٠٩) مروج الذهب ٢: ٦٥.

(١١٠) أخبار مكة ١: ١٠٩.

(١١١) المصدر السابق: ١١٠.

(١١٢) هيت: بلدة في العراق.

(١١٣) انظر أخبار مكة ١: ١١٩ـ١٢٠.

(١١٤) وذكر المسعودي في مروج الذهب ٢: ٥٥، الخبر نفسه وأضاف وقيل: بل هما حجران نحتا ومُثّلا بمن ذكرنا وسميا بأسمائها أساف ونائلة.

(١١٥) أخبار مكة ١: ١٢١.

(١١٦) المصدر نفسه.

(١١٧) الدخان: ٣٧.

(١١٨) هذيل: قبيلة عربية كبيرة قطنت شمالي الجزيرة، فريقٌ منهم حثَّ تُبّعاً علىٰ هدم الكعبة حسداً لقريش على ولايتها البيت. لكنهم دافعوا عن الكعبة وقاتلوا قتالاً شديداً حينما همَّ إبرهة الحبشي بهدم الكعبة، أُنظر معجم الحضارات السامية هنري س. عبودي: ٨٨٢.

(١١٩) أخبار مكة ١: ١٣٣ ـ ١٣٤.

(١٢٠) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي ١٨: ١٥٤.

(١٢١) المصدر نفسه.

(١٢٢) انظر الكاشف ٧: ٦٠٩ ـ ٦١٠، والميزان، ومروج الذهب ٢، وأخبار مكة ١: ١٣٤ ـ ١٥٤، والطبري وغيرها من كتب التاريخ والتفسير.

(١٢٣) الفيل: ١ ـ ٥.

(١٢٤) نقله محمد جواد مغنية في تفسير الكاشف ٧: ٦١٠، عن مرآة الاسلام، د. طه حسين.

(١٢٥) الاعلام، الزركلي.

(١٢٦) سبأ: ٢٨.

(١٢٧) يثرب: مدينة زراعية تقع علىٰ بُعد أربعمائة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال من مكة المكرمة.

(١٢٨) راجع تاريخ الطبري، ومروج الذهب، وقصة الحضارة وغيرها من كتب التاريخ في فتح مكّة.

(١٢٩) البقرة: ١٢٩.

(١٣٠) أخبار مكة، الأزرقي ١: ٥، ونقلها بعض كتب التفسير منه كالكاشف والميزان وغيرها.

(١٣١) المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني ٢: ١٥٢، والفقيه: ٢١٥ تحت رقم ٨.

(١٣٢) المصدر السابق نقلاً عن الكافي، الكليني ٤: ٢٥٣، والتهذيب ١: ٢٤٨.

(١٣٣) المصدر السابق نقلاً عن الكافي، الكليني ٤: ٢٥٣، والتهذيب ١: ٢٤٨.

(١٣٤) نقصد بالذين جاؤوا بعد النبي ابراهيم عليه السلام في منطقة الجزيرة من السدنة والولاة والحكام. الأنبياء بعد ابراهيم عليه السلام قد حجوا إليها كما حج ابراهيم عليه السلام.

(١٣٥) مريم: ٥٩.